ضمن الإحتفال بالقدس
عاصمة للثقافة العربية 2009

الفولكلور الفلسطيني

بصمة لتأصيل الهويّة



د. رمضان عبد الهادي

د. رمضان عبدالهادي

الفولكلور الفلسطيني

بصمة لتأصيل الهويّة

٢٠٠٩



إهداء

إلى كل من أحب فلسطين حباً مقدساً
أو حتى على الأقل حباً عذرياً..

كلمة المؤسسة

القدس .. والثقافة

كان من المفترض أن تحتفل القدس بعيدها الثقافي، على ترابها وتحت خيمتها المقدسة، وبين أروقة مساجدها وكنائسها، وبين اختلاط أجراس الكاتدرائيات وأذان المنائر.

ومن هذا التراب المقدس، سيعود المحتفلون بلا شك إلى الإبحار في تاريخ هذه البقعة المقدسة على قلوب العرب بدياناتهم المختلفة وانتماءاتهم وجذورهم العرقية التي تمتد في هذه المدينة إلى آلاف السنين قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

لن نذكر جديداً عندما نؤكد أن المسجد الأقصى المبارك في مدينة القدس الشريف هو أولى القبلتين وثالث الحرمين، ومنه ينبثق النور الذي يغطي ما حوله وينشر السلام والمحبة والبركة، ولأن الاحتفال بهذه المدينة المقدسة يأتي على غير ما كان المؤمل أن يكون نتيجة احتلالها من قبل الطاغوت الصهيوني الذي يحرم الناس من التوجه إلى هذه البقعة المقدسة من الأرض العربية، فإن الاحتفال أخذ بعداً أممياً

وعربياً، ليشمل كل الأرض العربية بمساحاتها الجغرافية الممتدة من الأطلسي حتى الخليج العربي، وقد تكاتفت جهود كل القوى التي تقدس المدينة وتعتبرها مرجعيتها التاريخية، والدينية، لتنشر هذه الاحتفالات.. ومنها ما هو واجب على مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية لتقدمه من جهد على خطين متوازيين، الأول تنظيم فعاليات ذات بعد جماهيري لتأكيد عروبة الأرض والإنسان، والثاني إصدار مطبوعات توثق مختلف الاتجاهات، وتؤكد أن فلسطين بشكل عام وليس القدس فقط هي أرض عربية منذ آلاف السنين، وأن أي احتلال عسكري لها لا يعتبر من الحقائق التي سجلتها الأرض قبل أن يشهد عليها التاريخ الإنساني والعربي معاً.

يقول الدكتور الحاج زكي الغول / أمين القدس " قبل أكثر من خمسة آلاف عام جاءت قبائل من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية ومن بينها جاءت جماعة من يبوس (وهي منطق شنوءة — بلاد الأزد) وحطت رحالها حول موقع المسجد الأقصى خصوصاً من الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية. وأقامت مدينة لها هناك وأطلقت عليها اسم

(يبوس) تيمناً باسم المكان الذي أتت منه في اليمن وبقي اسمها كذلك رغم وصفها باسم (أور سالم) أي مدينة سالم (ملك اليبوسيين).

ومنذ ذلك التاريخ الذي يمتد إلى ما قبل ولادة السيد المسيح عليه السلام، وحتى اليوم فإن أهل القدس هم الذين ذكرهم تاريخ المدينة المقدسة. ورغم موجات الاحتلال التي مر بها تاريخ القدس وفلسطين. وكل الحملات التي اتخذت عدة أساليب وشعارات لتغطية أطماعها في احتلال هذه الأرض المقدسة، فقد ظلت القدس تقاوم بأهلها وبدمائهم التي ظلت تروي الأرض آلاف السنين، وظلت على الرغم من الاحتلال المتكرر، هي ذاتها الأرض العربية التي بدأ الإنسان يبني حضارته عليها منذ أكثر من خمسة آلاف عام.

إن مساهمة مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية في إصدار خاص بهذه المناسبة، هو جزء من واجب أساسي لتأكيد عروبة الأرض، ومرجعية التاريخ، وتسلسل الإنسان العربي ورسوخه في جذور تمتد عميقة في تاريخ سحيق لا قرار له رغم المحاولات في تحجيم هذا الانتماء. والطعن في المرجعية العربية الإسلامية التي هي أساس لا

ينبغي الحياد فيه أو التراجع عنه، فالقدس ليست عاصمة فلسطين فحسب، بل هي قبلة المسلمين، ونقطة بداية لإسراء رسول الله (ص) الذي خص به الله سبحانه وتعالى، الدين الإسلامي وجعله مباركاً ليوم الدين:

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير).

نأمل ألا تتوقف جهود الأيادي الخيرة في تأكيد عروبة التراب الفلسطيني ووحدته وعروبة القدس، وأن تبقى القدس عربية – إسلامية، كما نأمل أن نحتفل تحت سماء القدس في مناسبة قريبة لتتوج المدينة المقدسة عاصمة أبدية للثقافة العربية وتؤكد انتماءها وجذورها العربيين رغم كل ما ينشره العدو الصهيوني من أكاذيب ملفقة ليمرر بها أطماعه واحتلاله البربري للتراب الفلسطيني وللقدس الشريف.

مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدث[١] الأخبار بالله محضا لم يشب[٢] وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم الكتب قالوا هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم» (رواه البخاري)

---

(١) أحدث : آخر الكتب السماوية نزولاً من عند الله .

(٢) يشب : لم يخلط بغيره قط؛ لأنه محفوظ من التبديل، والزيادة.

مقدمة

فلسطين... عروس متوسطية

أحبَّها أهلُها؛ فغرست لهم مدناً زاهية، تباهوا بها على مرِّ القرون.. وأصبحت ساعتئذٍ مهوى العاشقين وكذلك الطامعين!!

نثرت رحيق حضارتها على صفحة الزمان والمكان.

فتنسمت شواطىءٌ نائية عبقَ أريجها .

واعتلوا البحر.. فاستقبلتهم جزائرُها

فكان الحب وكانت الحضارة!!

أحبها أهلُها؛ ففيها مدينة الله، مدينة التوحيد، مدينة الرسل والرسالات.. قدسنا الغالية.

مدينة اختيرت على علم.. قبل الزمان في الأزل، لتحمل الأمانة ولتؤدي الرسالة، والله أعلمُ حيث يجعل رسالته.

أحبها أهلُها... ولا يزالون!

فقد وطئت أرضها أقدام الأنبياء والمرسلين

قام فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل .

وقام فيها لوط وإسماعيل واسحق ويعقوب وداود وسليمان.

وقام فيها زكريا ويحيى وعيسى بن مريم.

صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

وشعت فيها أنوار خاتم المرسلين وإمام النبيين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فكان منها معراجه إلى السموات العلى عند سدرة المنتهى وفيها أمَّ الأنبياء - عليهم السلام -.

فأحبها أهلُها.. ولايزالون كذلك!

وأحبها أعداؤها.. ولا يزالون!

فلم تشهد بقعة جغرافية على خريطة الكون حبّاً مثلما شهدت فلسطين!

إنه حبٌّ من نوع آخر، وعطاءٌ من نوع مختلف .

هبت عليها الغزاوات من جميع جهات الريح الموجودة على الأطلس الجغرافي... وزيادة!!

غزوات من الشرق والغرب،

غزوات من الشمال والجنوب،

ومن فوقٍ أيضاً، بطائرات القتل والدمار

فلماذا كل هذا الحبِّ القاتل؟

ألإنها مهد المسيح - عليه السلام - الذي دعا إلى المحبة والتسامح!

أم لأن عين اللصوصية لها غِلالة مسدلة على رؤية كلِّ ما هو خير؟

ثم ابتليت «عروسنا» بثقافة جديدة، نأى القاموس البشري أن يضمها بين دفتيه، وهي ثقافة الإلغاء العنصري بامتياز!

ابتليت بمن أحسنت إليهم فقابلوا المعروف بالجحود... إنهم يهود.

جاءوا إلى فلسطين يلتحفون السماء، ويفترشون الأرض..

سكنوا تل الربيع «تل أبيب لاحقاً؛ وتقع بجانب مدينة يافا».

وهي منطقة مزروعة بكروم العنب .

عطف عليهم الأهالي، وقدموا إليهم كرم المعاملة وحسن الجوار.

ورويداً رويداً استنسر البغاث على عروسنا فأحالها إلى نكبة..

فيا عروسنا المتوسطية

سنبقى على حبك

«فغداً... غداً...

سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والزيتون

وتضحك العيون..» (١)

سفير / حسين عبدالخالق

دبي في ٧/٤/٢٠٠٩م

---

(١) من قصيدة لنزار قباني.

تمهيد....

تعرضت فلسطين لغزوات كثيرة، ومن أهمها الغزوات الصليبية، والتي لاتزال تعاني آثارها حتى اليوم، وقد أثّرت وأثّرت هذه الغزوات آثاراً فكرية وثقافية، اتخذت لنفسها تياراً اجتماعياً / ثقافياً مستمراً ومتصاعداً، نتج عنه إبداعات فنية وأدبية، سواء منها الإنتاج الراقي المكتوب، أو ذلك التيار الشعبي مجهول المؤلف والذي يعبر عنه عادة بالآداب والفنون الشعبية.

وقد فشل الأدب الرسمي في الإجابة عن تساؤلات كثيرة، طرحها عامّة الناس حول عجز الحكام ونجاح الصليبيين، على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً وعدة، وعلى الرغم من أنهم كانوا أقل شأناً في المفهوم الشعبي، أليس المسلمون هم أتباع الدين الحق؟ فلماذا كانت الهزيمة وانتصار الفرنج؟ .

ومع مرور الوقت، بدأ الأدب الشعبي والفن الشعبي يطرحان نفسيهما بديلاً عن الأدب الرسمي، الذي ناله الجمود، وقدم الأدب الشعبي من خلال الشعر والزجل،

ومن خلال السيرة، والحكاية، والنادرة، الإجابات الفنية التعويضية عما طرحه الناس من تساؤلات محيّرة مضنية، مثلما نجد ذلك في مجال القصص الشعبي، الذي كان القصاصون يلقونه على مسامع الناس في محافلهم وأنديتهم فيطربون لما تحمله هذه القصص في ثناياها من أحداث وشخصيات تحمل لهم التعويض من واقعهم البائس، وتوفر لهم الأمل، وتنتقم لهم من رموز الظلم.

وقد أثرت الحروب الصليبية، على تراثنا الشعبي الفلسطيني فقد أفرزت ألواناً من الفولكلور جسدت روح النضال في فلسطين فما هي الحروب الصليبية، وكيف غذّت الأدب الشعبي المقاوم، وما دور صلاح الدين الأيوبي في هذا الأدب، هذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه ، ولأن الفترة ما بعد الصليبيين، وحتى بدايات القرن التاسع عشر كانت فترة خمول خاصة في العهد العثماني، فقد تجاوزنا هذه الفترة إلى بدايات العام ١٩٠٠م، وهي فترة التحول الصعبة في تاريخ شعبنا الذي وقع فريسة للهجمة البريطانية والتي كانت سبباً في ضياع وطننا فلسطين بإعطائه وطناً قومياً لليهود.

فلسطين... الأرض والتاريخ

الأرض

يشكل الهلال الخصيب شبه دائرة من الأراضي الزراعية تمتد من الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بشمال سورية ووصولاً إلى بلاد ما بين النهرين.

وتقع فلسطين في الطرف الجنوبي الغربي من الهلال الخصيب، ففي غربها البحر الأبيض المتوسط وفي شرقها الصحراء العربية، وهذا ما جعلها تتأثر بهما مناخياً وسكانياً، وكان أثر الصحراء فيها على الصعيد السكاني، إذ ظلت موجات هجرة القبائل تندفع من قلب الصحراء إلى أنحاء الهلال الخصيب ومنه فلسطين، ويخترق فلسطين من الشمال إلى الجنوب الانهدام السوري الأفريقي (الأخدود) في غور الأردن. وهي تشكل جسراً برياً يربط قارة آسيا

بقارة إفريقيا، وهي الأقرب من بلاد الشام لوادي النيل[١].
إلى أن قسمتها سكين سايكس / بيكو إلى الحدود المعروفة حالياً.

التـــاريـــخ

نزل بنو سام بن نوح سرَّه الأرض، وجعل الله سبحانه وتعالى فيهم النبوة والكتاب والجمال، ومن أبناء سام فارس وطسم وإرم وارفخشد وعملق (وهو ابو العماليق) الذين تحدثوا باللسان العربي، وكانت العرب تقول عنهم العرب العاربة وتقول لبني إسماعيل العرب المستعربة، لأنهم كانوا يتكلمون بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم.

وكانت العماليق في بلدان شتى فسكنوا الشام في أرض كنعان، وسكنوا مصر، والمدينة المنورة، كما كان منهم بشرق عمان (الإمارات حالياً)، والبحرين.

وسميت الطائفة الذين سكنوا الشام بالكنعانيين، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها وهم الجبابرة المعروفون.

والطائفة التي كانت بمصر يقال لها «الفراعنة» ومنهم

(١) أنظر : الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، إلياس شوفاني «بتصرف»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٩٩٨م.

فرعون يوسف وكان اسمه الريان بن الوليد، وفرعون موسى، وكان اسمه الوليد بن مصعب.

وأُطلق على العمالقة أيضاً «اليبوسيون» كما تحدثنا قصة المثل العربي «ما أذنب إلاّ ذنب صحر» حيث تقول:

«كان لقمان بن عاد بن عاديا - الذي عمر سبعة أنسر - مبتلىً بالنساء، فكان يتزوج المرأة فتخونه، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال. ثم نقر لها بيتاً في صفح الجبل، وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد، فإذا خرج رفعت السلاسل، حتى عرض لها فتىً من العماليق فوقعت في نفسه، فأتى بني أبيه، فقال: والله لأجتنينّ عليكم حرباً لا تقومون بها، قالوا: وماذاك؟ قال: امرأة لقمان بن عاد، هي أحبُّ الناس إليَّ، قالوا: كيف نحتال لك؟ قال: أجمعوا سيوفكم، ثم اجعلوني فيها، وشدوها حزمة عظيمة، ثم ائتوا لقمان فقولوا: إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودع سيوفنا حتى نرجع، وسمّوا له يوماً، ففعلوا وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان، فوضعها في بيته، وخرج لقمان، وتحرك الرجل فحلّت الجارية عنه، وكان يأتيها، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى انقضت الأيام، ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك، فإذا

بنخامة يبوسي في سقف البيت، فقال لامرأته: من نخم هذه؟ قالت: أنا، قال: فتنخمي، ففعلت فلم تصنع شيئاً، فقال: يا ويلتاه السيوف دهتني، ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً، وانحدر مغضباً، فإذا ابنة له يقال لها «صحر» فقالت له: يا أبتاه ما شأنك؟ قال: فأنت أيضاً من النساء، فضرب رأسها بصخرة فقتلها، فقالت العرب: «ما أذنبت إلاّ ذنب صحر» [1]، فصار مثلاً [2].

كما أطلق عليهم اسم «الفلسطينيون»، نسبة إلى قبيلة «فلست» العربية التي كانت تسكن جنوبي فلسطين في غزة وبئر السبع، ثم رحلوا إلى الشواطىء الشامية الشمالية ومنها إلى الشمال الأفريقي خاصة الجزائر وجزر البحر الأبيض المتوسط الكبرى مثل: قبرص وكريت ومالطة وصقلية وسردينيا واحتكوا بسكانها ولكنهم احتفظوا باستقلاليتهم العرقية واللغوية، وعرفوا تاريخياً باسم أقوام البحر، وبعد الاجتياح اليوناني المسلح لتلك الجزر غادرها «أقوام البحر» إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، حيث عاد

---

(١) انظر كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط. دمشق ١٩٨٠، ص٢٧٢.

(٢) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لأبي الفرج الجوزي ت. د. سهيل زكار، ١٩٩٥، الجزء الأول ص١٤٤، دار الفكر بيروت.

الفلسطينيون إلى موطنهم الأصلي جنوب أرض كنعان حوالي عام ١١٨٤ ق. م [1].

واندمجوا بإخوانهم الكنعانيين والفينيقيين واليبوسيين، واشتهر الكنعانيون بالزراعة، وأقاموا مدناً أحاطوها بأسوار حصينة تعصمهم من المغيرين وكونوا لهم حضارة، ومن أهم مدنهم غزة وعسقلان واسدود، بينما اتجه إخوانهم الفينيقيون إلى الساحل أمام جبال لبنان واشتهروا بالملاحة.

واستوطن اليبوسيون القدس، عندما بنوها أول مرة عام ٤٠٠٠ ق م، ومن مدنهم أريحا وبيسان وشكيم (نابلس) ومجدّو وجازن، وظلت لهم السيادة من ٢٥٠٠ ق م إلى ١٠٠٠ ق م وحين مَرَّ إبراهيم - عليه السلام - بيبوس حوالي سنة ١٩٠٠ ق. م كانت مدينة متكاملة، ذات قاعدة ملكية ومركزاً مقدساً.

وولد لإبراهيم عليه السلام، اسحاق، ولإسحاق يعقوب، ودعي إسرائيل، وبيع ولده يوسف إلى عزيز مصر، حيث تبوّأ منصباً، ونزح يعقوب وأولاده إلى مصر (١٦٥٦ ق.م) بسبب القحط الذي أصاب فلسطين، وتكاثر الإسرائيليون - من بني يعقوب - فيها، ولمّا اضطهدوا في عهد رمسيس الثاني

---

(١) المدينة المسحورة، دراسة في تاريخ مدينة القدس. د. عصام قنيبي، ص٢٠، دار الطليعة الجديدة، دمشق.

(فرعون) قرر موسى عليه السلام تحريرهم والنزوح بهم شرقاً، فعبر وقومه البحر بعد أن شُقَّ لهم، ووصلوا إلى جنوب صحراء سيناء حوالي (١٢٩٠ ق. م).

وفي أثناء ذلك أُوحي إلى موسى بشريعته في مدين، ولقي موسى من قومه كل عنت؛ بسبب إصرارهم على عبادة الأوثان.

كانت شريعة موسى - عليه السلام - شريعة عظيمة، وأمته أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعباد وزهاد وأدباء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء، وقد خاطبهم القرآن الكريم بـ «يابني إسرائيل»، تكريماً لهم، ولكنهم كانوا فبادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم، ونسخت مِلَّتهم وجرت عليهم خطوب وأمور كثيرة [١].

كان جالوت ومن معه من العمالقة الجبارين يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا علي بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم من أبناء الملوك[٢].

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير، ص٣٧٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢/١٥٨.

وكان بنو إسرائيل قد سكنوا قرية على ساحل يقال لها إيلة في طرف إصبع البحر الأحمر الشرقي، واشتغلوا بالصيد.

وعندما أمروا أن يقاتلوا جالوت وجنوده أَبَوا، وقالوا: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾[1]، ثم ابتلوا بنهر أمامهم فمن اجتازه منهم اتجه شمالاً لمقاتلة عدوهم.

وتوفي هارون ومن بعده موسى عليه السلام، في أرض التيه، ولم يدخل الأرض المقدسة[2]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره، إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر»[3].

ولا يعرف من هي الأرض المقدسة التي ذكرت هل هي الشام، أم الحجاز .

تقول مصادر التاريخ أن موسى - عليه السلام - بعث بعثاً بعد هلاك فرعون، إلى الحجاز وأمرهم أن لا يستبقوا منهم أحداً (وهذا افتراء على نبي الله موسى)، فقدموها

---

(١) من الآية ٢٤٩، سورة البقرة .

(٢) المنتظم ١/ ٢٥٤، قصص الأنبياء لابن كثير ص٤٠٢، دار الأصالة.

(٣) مسند الإمام أحمد ج٢/ص ٢٦٩، ٣١٥ .

فرزقهم الله الظفر فقتلوا العمالقة وكانوا بيثرب حتى انتهوا إلى ملكهم الذي يقال له: الأرقم قيما، فقتلوه، وأصابوا ابناً له شاباً لم يرَ أحسن منه، فضنوا به عن القتل، وأجمع رأيهم على أن يسحبوه حتى يقدموا به على موسى فيرى فيه رأيه، فقالت بنو إسرائيل: خالفتم نبيكم حين استبقيتم هذا، لا تدخلوا علينا، فحالوا بينهم وبين الشام، فرجعوا إلى الحجاز فكان ذلك أول سكنى يهود الحجاز، فنزلوا المدينة واتخذوا فيها المزارع، فمنهم بنو قريظة، وبنو النضير[(١)].

وبعد موسى - عليه السلام - تولى الأمر يوشع بن نون.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»[(٢)].

وفي هذا الحديث دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام، وليست اريحا كما تورد بعض كتب التاريخ التي تعتمد في مصادرها على التوراة الموضوعة.

ثم كان من ذرية إبراهيم عليه السلام - داود وسليمان عليهما السلام، وقد جمع الله عز وجل لداود الملك والنبوة،

---

(١) المنتظم ١/ ٢٣٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قصص الأنبياء ٤٠٥ .

وكان المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى أنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾[1].

ثم ورث سليمان أباه داود وآتاه الله من كلّ شيء وذلك الفضل المبين، وهو الذي بنى بيت المقدس، وليس الهيكل كما تزعم المصادر الملفقة، فقد روي عن عبدالله بن عمرو ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سليمان ابن داود - صلى الله عليه وسلم - لما بنى «بيت المقدس» سأل الله عزَّ وجل، خلالاً ثلاثة، سأل الله - عز وجل - حكماً يصادف حكمه، فأوتيه، وسأل الله - عز وجل - ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه، وسأل الله - عزَّ وجل - حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه[2].

وبعد ذلك ولد عيسى بن مريم في بيت لحم قريباً من

---

(١) سبأ ١٣ ، وانظر تفسير ابن كثير لهذه الآية.

(٢) سنن النسائي: ٣٧/٢، كتاب المساجد، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (٦) ح قم ٦٨٩ .

بيت المقدس وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده، ونوّه باسمه، وذكر لهم صفته، ليعرفوه ويتابعوه، إقامة للحجة عليهم، وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[١]

فجميع الأنبياء والمرسلين رسالتهم واحدة، ودعوتهم إلى الله واحدة، وهم معصومون عن الخطأ، ويدعون إلى التسامح والعدل واحترام الذات الإنسانية وليس إهلاكها أو إلغائها، يقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ٠ ووهبنا له أسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ٠ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا

---

(١) الأعراف: ١٥٧ .

وكلاً فضلنا على العالمين ۰ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾[١]

إن دعوى صلة اليهود اليوم ببني إسرائيل وتاريخهم زائفة كل الزيف، وتزداد دهشة المرء من استطاعتهم تضليل العالم عن تاريخهم وأمجادهم وصلتهم الدموية ببني إسرائيل، بما أحكموا من دعاية كاذبة تتخذ كل وسيلة مهما كانت [٢]، فهم الفئة الكافرة منهم.

وقد روي أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت الآية الكريمة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ [٣]

ومن الآيات الواضحات قوله تعالى عن بني إسرائيل بعد أن نجّى الله تعالى موسى: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ [٤].

---

(١) سورة الانعام ٨٢٠ - ٨٧ .

(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، دروزة ص٧، ١١.

(٣) سورة البقرة : ١٣٣.

(٤) سورة الإسراء ١٠٤.

فكلمة الأرض جاءت مجردة عن الوصف، دون تقييد بمكان، لينسجم ذلك مع آيات القرآن الكريم التي حكمت عليهم بالتفرق في جميع أنحاء الأرض، فلا يكون لهم وطن يجتمعون فيه، كما قال تعالى: ﴿وقطعناهم في الأرض أمما﴾[1] والواقع يؤيد هذا حيث نراهم متفرقين في شتى البلاد، إلا أنهم يتجاورون إلى أماكن محددة لهم «غيتوهات» أو كانتونات يتجمعون فيها، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى، والمراد بوعد الآخرة من قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وعد الله تعالى، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿جئنا بكم لفيفا﴾ أي مجتمعين بعضكم إلى بعض من شتى البلاد.

إما إفسادهم الأول فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلنَّ علواً كبيراً • فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ [2].

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٨.

(٢) سورة الإسراء : ٤، ٥.

فقد جاس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلال ديارهم في المدينة، وفي بني قريظة وبني قينقاع، وبني النضير، وأجلاهم إلى أذرعاتٍ بالشام[1].

وتعرضت فلسطين لغزوات كثيرة من الفرس واليونان والرومان، حتى مَنَّ الله تعالى على فلسطين بالفتح العظيم.

الفـتح الإسـلامي :

كان للعرب في الجاهلية رحلة تجارية تسافر قوافلهم بها خلال الصيف إلى بلاد الشام التي منها القدس وفي الشتاء يسافرون إلى اليمن.

ولقد شارك رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في رحلتين إلى بلاد الشام، كما أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- تاجر في أسواق غزة،حيث قدم بلاد الشام أربع مرات ودخل بيت المقدس وأحرم منه وقال: «لبيك اللهم لبيك»[2].

---

(١) تفسير الشعراوي ج/١٤، ص٨٧٨٧ - ٨٧٨٩ أخبار اليوم - القاهرة.

(٢) اتحاف الخيرة المهرة، بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري، ٤/٥٨، ٥٩ .

ولقد دعا النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى فتح بلاد الشام – حيث خضعت للحكم الروماني واليوناني حوالي ألف سنة ، وقد ورد في فضل بلاد الشام آيات وأحاديث منها:

الآيـــات:

(أ) **الإسراء** : وهذا هو الفتح الروحي لبيت المقدس:

قال الله تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾الاسراء: ١

(ب) **المعراج** : وهو عروج الرسول- صلى الله عليه وسلم –من صخرة بيت المقدس إلى السموات العلى في ليلة الاسراء.

- قال الله تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى ،إذ يغشى السدرة ما يغشى ،ما زاغ البصر وما طغى ،لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ النجم ١٣-١٨.

(ج) **القبلة** : صلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- متجها نحو القدس ،وبقيت قبلة المسلمين مدة ستة عشر شهرا

أو سبعة عشر شهرا بعد الهجرة [1]، ولذلك تسمى القبلة الأولى ، ثم تحولت القبلة إلى مكة المكرمة.

- قال الله تعالى :﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ،وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ البقرة :١٤٤.

وعن ابن عباس قال[2] : لما وجه النبي-صلى الله عليه وسلم- إلى الكعبة ،قالوا : يا رسول الله :كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ البقرة :١٤٣.

الأحاديث:

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل بيت المقدس:

- قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :«صلاة فيه

---

(١) انظر صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري: ٩٥/١ كتاب الإيمان (٢) باب الصلاة من الإيمان (٣٠)، ح رقم (٤٠).

(٢) سنن الترمذي: ٢٠٨/٥، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله (٤٨)، باب: ومن سورة البقرة (٣) ح رقم (٢٩٦٤).

أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة».[1]

- «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :المسجد الحرام، ومسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومسجد الأقصى ».[2]

- عن ذي الأصابع ،أنه قال : يا رسول الله ،إن ابتلينا بعدك بالبقاء أين تأمرنا ؟ قال :«عليك ببيت المقدس ،فلعله إن ينشأ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون» . [3]

- «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنودا مجندة: جند بالشام ،جند باليمن، وجند بالعراق» قال ابن حوالة: خر لي يا رسول الله إن أدركت ذلك فقال: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله»[4]

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج (٦٤)، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة (٩٤) ح رقم (٥١٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٦٣/٣، كتاب فضل الصلاة (٢٠) باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١) رقم (١١٨٩).

(٣) المسند : ٤ / ٦٧ .

(٤) سنن ابي داود: ٣٨٢، كتاب الجهاد (٩) باب في سكنى الشام (٣) ح رقم (٢٤٨٣).

- «عليك بالشام، فإن الله – عز وجل- قد تكفل لي بالشام وأهله،والزم بالشام عسقلان ،فإنها إذا دارت الرحى في أمتي كان أهلها في خير وعافية .[1]

- «طوبي للشام» فقلنا :لأي ذلك يا رسول الله ؟ قال «لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها».[2]

- «يا ابن حوالة :إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض المقدس فقد دنت الزلازل ،والبلايا ،والأمور العظام ،والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك»[3] وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد وضع يده الشريفة على رأس عبدالله بن حوالة الأزدي.

- «اعدد ستا بين يدي الساعة :موتى ثم فتح «بيت المقدس» ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ،ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته،

---

(١) الطبراني – المعجم الكبير – ٧٦/١١ ح رقم (١١١٤٩).

(٢) سنن الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضائل الشام واليمن، ح رقم (٣٩٨٠).

(٣) سنن أبي داود: ٣٩١، كتاب الجهاد (٩) باب في الرجل يغزو ويلتمس الأجر والغنيمة (٣٧) ح رقم (٢٥٣٥).

ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيقدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا»[1]

- «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ،لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك «قالوا :يا رسول الله! وأين هم ؟قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»[2]

- «تخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء»[3]«إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها، إن فيها خليفة الله المهدي»[4]

---

(١) صحيح البخاري مع شرحه في فتح الباري: ٢٧٧/٦، كتاب الجزية (٥٨)، باب ما يحذر من القدر (١٥) حديث رقم (٣١٧٦)، قوله (كقعاص الغنم)، بالضم: داء يأخذ الغنم لا يلبثها ان تموت، وظهرت هذه الآية في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس. واستفاضة المال، أي : كثرته، وظهرت في خلافة عثمان عند الفتوح العظيمة، وبني الأصفر: الروم، والغاية: الراية، وسميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

(٢) المسند : ٢٦٩/٥، واللأواء: الشدة، وأكناف: محيط.

(٣) مسند الترمذي ٥٢١/٤ ح رقم (٢٢٦٩).

(٤) المسند ٢٧٧/٥ .

- «أرض المحشر والمنشر ،ائتوه فصلوا فيه ،فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره»[(١)].

ولهذه الآيات والأحاديث تعلق المسلمون بالقدس، وقصدوا مسجدها للصلاة فيه وتنافس المسلمون في إعماره كلما احتاج إلى إعمار كما تنافسوا في إنشاء الأبنية في ساحته أو في جواره ليتقربوا بها إلى الله تعالى . وكانت ذكرى المعراج إحدى الصلات الرئيسة التي تشد المسلمين إلى بيت المقدس والمسجد الاقصى كما كانت إحدى القواعد الاساسية التي تربط العالم الإسلامي بفلسطين. ولا أدل على هذا من أن المؤتمر الإسلامي الذي عقد في باحة الأقصى سنة ١٩٣١م والذي قرراعتبار يوم المعراج في ٢٧ رجب من كل عام يوم فلسطين ،وتقرير نصرتها، وهل ينتظر وجود رابطة أقوىبين بلد كفلسطين وبين أمة كالأمة الإسلامية من هذه الروابط.[(٢)]

هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وجهت أنظار قادة المسلمين لفتح البلاد ونشر الدعوة الإسلامية فيها .وكانت معركة «مؤتة»[(٣)] بداءة الصراع بين المسلمين

---

(١) مسند ابن ماجه ٤٥١/١، كتاب إقامة الصلاة والسند فيها (٥) باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٩٦)، ح رقم (١٤٠٧).

(٢) فلسطين : أرضا وشعباً وقضية، ص١١٧ .

(٣) تقع شرق الطرف الجنوبي للبحر الميت .

والبيزنطيين حيث جهز النبي – صلى الله عليه وسلم- جيشا بقيادة أسامة بن زيد لإنفاذه إلى الشام ولكنه توفي- صلى الله عليه وسلم- قبل سيره ؛ فبادر أبو بكر الصديق إلى إنفاذه بعد أن فرغ من حروب الردة، فأرسل خمسة جيوش بقيادة خمسة من كبار الصحابة كان منهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان و شرحبيل بن حسنة وأبوعبيدة ابن الجراح.

اصطدام يزيد بجيش الروم في وادي عربة (جنوب البحر الميت) وهزمهم هناك في معارك داثن وربينة وغزة حتى عسقلان على الساحل. وأرسل هرقل جيشاً ضخماً بقيادة أخيه تيودورس فأمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يشخص من العراق لنجدة جيوش العرب في الشام والتي انتصرت بقيادة عمرو بن العاص على جيوش الروم في «أجنادين» في سفوح الجبال الغربية عام (٦٣٤م) تم بعدها فتح بيسان وغزة ونابلس واللد ويافا.

ثم توحدت القوات العربية ثانية في وادي اليرموك بقيادة خالد بن الوليد واستطاعوا تحقيق النصر على الروم وقتل قائدهم «تيودروس»ثم زحفت الجيوش العربية إلى القدس ولما رأى بطريركها «صفرونيوس»الشامي أن لا قبل لبيزنطة من الوقوف أمام هذه الجيوش طلب من

قائد الجيوش العربية أبي عبيدة بن الجراح تسليم المدينة المقدسة شريطة أن يتولى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه تسلم القدس حتى يعطي المواثيق لسكانها، المواثيق التي لابد وأن يحترمها المسلمون إذا وقعها أميرهم .

فرح خليفة المؤمنين عمر بن الخطاب بما سمع؛ وركب جمله وقطع أكثر من ألفي كيلو متر حتى وصل إلى أسوار القدس .وبعد مفاوضات بسيطة دخلها سلما دون أن تراق قطرة دم مخلوق وأعطى سكان القدس أمانا على أنفسهم وأموالهم ومعابدهم بما يسمى بالعهدة العمرية وهذا هو الفتح السياسي لبيت المقدس وشهد عليها : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وعبدالرحمن بن عوف، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها. وأنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم .ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحدهم ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود وعلى أهل

ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن .وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وعلى ماله حتى يبلغوا مأمنهم .ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية .ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار من الروم ومن رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .وعلى ما في هذا الكتاب من عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .كتب سنة خمس عشرة، شهد على ذلك خالد بن الويد وعبدالرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .[١]

ثم شخص عمر بن الخطاب إلى القدس حيث استقبله بطريركها صفرنيوس ودخلا القدس معا (٦٣٨م) وزار كنيسة القيامة ورأى مزبلة في مكان مسجد سليمان فأخذ هو ومن معه يزيلون الأوساخ وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة. وبعد عام تم فتح فلسطين كلها وأخذت القبائل العربية تفد

---

(١) الطبري ج١/١٠٥ .

إليها وتسكنها ومنذ ذلك الحين طبعت فلسطين بالطابع العربي إذ تعرب من بقي من سكانها ودخلوا في الإسلام. وبعد ثلاث سنين تغشى في فلسطين طاعون يعرف بطاعون عمواس توفي فيه كثير من الجنود فانتقل بعدها أبوعبيدة من الجبال الموجودة بالطاعون إلى الغور ولكن الوباء كان قد علق ببعضهم فأمات الكثير من الجنود كما قضى على عدد من الصحابة والقادة منهم أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وضرار بن الأزور ومعاذ بن جبل ودفنوا جميعا في قبور متقاربة يراها اليوم المسافر من دير علا إلى الغور الشمالي .(١)

الحكم الأموي :

بعد تحرير بلاد الشام من البيزنطيين وانضمامها إلى الدولة العربية الإسلامية أصبح معاوية بن أبي سفيان واليا على الشام وذلك بعد استشهاد الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– ثم أصبح خليفة للمسلمين في العام٤١هـ /٦٦١م ونقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى

---

(١) فلسطين: أرضاً وشعباً وقضية، ص١١٨ .

دمشق وأخذت القبائل العربية تهاجر من الجزيرة لتستقر في الشام فقدم إليها قبائل يمنية من حمير ومذحج وهمدان وطي والأزد كما قدمت اليها قبائل قيسية خلال الحكم اليوناني والروماني وأخذوا يبنون المساجد والقصور والمدن. ولم تكن قصور الأمويين مجرد منازل للنزهة بل كانت مراكز ومشاريع للاستثمار الزراعي وكانت منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج ومجار لأرواء حقول ومشاريع زراعية وكان معاوية وابنه يزيد يحبا الاقامةإلى جانب بحيرة طبريا وينسب إلى الوليد بن عبدالملك بناء قصر «المشتى»قرب البحر الميت وكان ابنه سليمان قد بنى مدينة الرملة وامضى شبابه فيها كما انه بويع بالخلافة بجوار قبة الصخرة بالقدس .

وحظيت فلسطين بأهمية كبيرة عند الأمويين فقد أبلى كل من معاوية ويزيد بلاء حسنا في تحرير فلسطين حتى قيل :«ما فتحت كورة في فلسطين إلا وجد عندها رجل أموي ميتا»وكان المسلمون الأوائل يحبذون الجهاد في فلسطين حيث فيها قبة الصخرة موقع المعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين كما أن المسلمين بعد الفتح رغبوا في الاستقرار فيها أو زيارتها. وحين تولى معاوية الخلافة سنة أربعين

للهجرة زار بيت المقدس وصلى عند جبل الجلجلة (او جبل الصلبوت)ثم ذهب الى الجتسمائية وصلى عند قبر السيدة مريم وهما من أقدس الآثار المسيحية في القدس وقد أختارمعاوية بن أبي سفيان القدس للمناداة به خليفة المسلمين كما أن الخليفة نفسه، رمم سورها وأصلحه واعتنى ببساتينها وغاباتها وعندما تحولت الدولة الأموية إلى دولة بحرية زاد اهتمام معاوية بالأسطول حيث بنى دار الصناعة بعكا فلسطين نظرا لتهديد الاسطول البيزنطي للموانيء العربية الإسلامية في صور وصيدا.

وبعد موت معاوية الثاني لم تكن فلسطين مؤيدة لمروان مما دعا إلى تعيين ابنه عبدالملك واليا عليها حيث واجه ثورة قبلية استطاع ان يقضي عليها وانتهز الروم هذه المشكلات الداخلية فهاجموا سواحل فلسطين وضربوا عسقلان وأجلوا أهلها عنها .ولكن عبدالملك قام بإعادة بناء عسقلان وترميم ما دمر في عكا وقيسارية وأعاد الاستحكامات العسكرية وحشدها بالمقاتلة وأهم الأعمال التي قام بها عبدالملك، هو بناء قبة الصخرة والمسجد الاقصى، وصرف أموالاً كثيرة في زخرفتهما وجلب المهندسين المعماريين من أنحاء مختلفة للاستعانة

بخبرتهم.واهتم خلفاء بني أمية بهما من حيث الترميم والتجديد والتزيين ويعتبر المسجدان أقدم وأروع نموذج في فن العمارة الإسلامية .كما عَبَّد الخليفة عبدالملك بن مروان الطرق الرئيسة بين الشام والقدس من أجل تسهيل الزيارة .

الوليد بن عبدالملك :

اهتم بالقدس اهتماما كبيراً وبايعه الناس في مسجد قبة الصخرة، ويعرف عن الوليد حبه للعمران والبناء؛ خاصة ما يتعلق منها بالصالح العام كالمستشفيات ودور الضيافة والكتاتيب والآبار وإصلاح الطرق وفتح الأسواق، وبنى مراكز الرعاية الاجتماعية للمقعدين والعميان والمجذومين وعين عطاء ثابتا للعجزة والفقراء ، كما شيد عدة قصور أحدها على الضفاف الشمالية لطبريا .

سليمان بن عبدالملك:

كان حين ولي الخلافة في «بئر السبع»، ثم انتقل إلى القدس، وأتته الوفود بالبيعة؛ وكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة، وقد بسط البسط، وعليها النمارق والكراسي والوسائد، وبنى مدينة الرملة

وجعلها عاصمة لفلسطين وأصبحت مقرا له فيما بعد وكان يشرف على مبانيها وقنواتها وآبارها ومساجدها.

الحكم العباسـي:

بعد زوال الدولة الأموية نتيجة الفتن والثورات ؛تأسست الدولة العباسية وإنتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق وبنى المنصور مدينة بغداد ومن ثم قل الاهتمام ببلاد الشام . وبعدما ضعفت سلطة الخلفاء العباسيين انتقلت السلطة إلى أمراء أنشأوا إمارات في أملاك الدولة العباسية؛ فظهرت الدولة الطولونية والأخشيدية في مصر والشام ؛ولم يبق من آثارها في فلسطين سوى ميناء عكا وأسوارها وهي من عمل أحمد بن طولون ،وبعض الأبراج والقلاع التي لا أهمية لها .ولئن تدهورت البلاد سياسيا فإنها جادت ببعض أفذاذ الرجال في مختلف الميادين كان في طليعتهم الإمام الشافعي المولود في غزة والذي ظل يحن إليها في مختلف البلدان التي ارتحل إليها حيث يقولُ :

واني لمشتاق إلى أرض غزة

وأن خانني بعد التفرق كتماني

سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها

كحلت به من شدة الشوق أجفاني

ومنهم كشاجم الرملي الذي برع في الكتابة والشعر والأدب والجود والتنجيم، ومن حروفها الأولى تكون اسمه (كشاجم).

ومنهم الحسن اليازوري، الذي ولد بيازور، إحدى قرى الرملة، وأدار شؤون الدولة الفاطمية بمهارة فائقة كرئيس لوزرائها وقاضي قضاتها.

ومنهم المقدسي الجغرافي المشهور بكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

ومن أهم مدن فلسطين في هذا العصر العباسي عسقلان وقيسارية والرملة وبيسان وعكا، بالإضافة إلى القدس ونابلس والخليل.

وبسبب الفوضى في الإدارة وضعفها ؛ كثر التنافس بين زعماء البلاد مما أدى إلى نشوب حروب عديدة قاسى الشعب منها كثيرا، ونزح إليها عدد كبير من القبائل العربية

واستقروا في مدنها وقراها.وكان من نتيجة ضعف الدولة العباسية أن تقاسم القواد البلاد ثم نازعهم السلاجقة الذين تعرضت فلسطين في أيامهم للحروب الصليبية ،وحين قامت الدولة الطولونية في مصر احتل أحمد بن طولون فلسطين (٨٧٨م) وضمها إلى مصر،وظلت فلسطين تابعة لمصر في عهد الدولة الأخشيدية، وفي العهد الفاطمي تبعت فلسطين مصر، بعد أن كسر الجيش الفاطمي جيش والي دمشق الإخشيدي في الرملة، واحتل القرامطة في زحفهم إلى مصر مدينة الرملة؛ ولكن الفاطميين هزموهم، وقامت الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى واستولت جيوشها على الرملة والقدس بعد سورية ؛وقاومتهم الحامية الفاطمية في عسقلان (١٠٧١) ثم استردها الفاطميون، واستمرت الخصومة بينهم وبين السلاجقة حتى باغتهم الصليبيون.

الغزو الصليبي

إن المسيحية تخالف الفكر الصليبي
وأن الغزاة استتروا وراء الدين ووراء
الأماكن المقدسة ثم كشفوا عن
هدفهم وهو الاحتلال.

«البابا شنودة الثالث»

انقسمت نصرانية أوروبا إلى قسمين :(الأرثوزكس) في بيزنطة ومقرها القسطنطينية ،و(الكاثوليك)الذين يخضعون للبابا ومقرهم روما. ويقيم البابا في حاضرته «الفاتيكان».

في ذلك الوقت كانت هناك قوة جديدة تتقدم من المشرق وتحمل روحا قتالية كبيرة؛ وتندفع باسم الإسلام نحو الغرب، تلك هي قوة السلاجقة الأتراك، الذين هزموا بيزنطة في موقعه «ملاذكرت» بقيادة ألب ارسلان « عام ٤٦٣هـ /١٠٧١م. فاستنجد إمبراطور بيزنطة «ميخائيل السابع» بروما ، وحاول أولا أن يصفي ما بين الكنيستين من اختلاف ؛ فاستغل مناسبة انتخاب الكاردينال «هيلد براند»

بابا في روما وهو الذي اتخذ لقب البابا «غريغوري السابع» فأرسل الإمبراطور وفدا للتهنئة حاملا رغبة الإمبرطور في توثيق الصلة بين بيزنطة وروما ،ووافق البابا الجديد.

ولم يكن ذلك هو العامل الرئيسي للحملات الصليبية؛ ولكنها اتكأت على مجموعة أسباب دينية واقتصادية واجتماعية ؛ منثورة في طوايا كتب التاريخ، وكما يذكرها المؤرخون نحاول أن نلخص سطورها فيما يأتي:

- الفرقة والانقسام وتوزع مناطق الولايات في العالم الإسلامي ، ما بين الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في القاهرة ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وخضوع عدة مدن في بلاد الشام تحت حكم عدد من الأمراء الضعفاء أو الأمراء شديدي الدهاء ، وتحالف بعض أمراء الأقطار الإسلامية مع الغزاة الفرنجة.

- الخوف من عودة قوة المسلمين؛ بعد الانتصارات التي أحرزها السلاجقة في معركة «ملاذكرت» . فلا بد من مساعدة الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس)في صراعة ضد السلاجقة الأتراك ، وبذلك تفوق نفوذ البابا على غربي أوروبا وعلى الإمبراطورية في القسطنطينية.

- قامت الكنيسة في البداية على روح المحبة والإخاء وحب السلام ولكنها تحولت إلى روح حربية دموية بسبب دخول عناصر بربرية في النصرانية وهي القبائل التي كانت تتنقل في أوروبا ومنهم المجموعة الجرمانية والمجرية.

- استنجاد العبيديين الذين هزموا أمام السلاجقة ببعض أمراء أوروبا ،خاصة عندما انهزموا وتخلوا عن بيت المقدس.

- وهناك أسباب دينية واقتصادية لا علاقة للمسلمين بها؛ خاصة وأن الدين الإسلامي مبني على النظرة التسامحية مع أصحاب الديانات الأخرى، لهذا لقي مسيحيو الغرب الراغبون في الحج إلى الديار المقدسة في فلسطين الترحيب من الحكام وولاتهم في الشام ولا يزالون كذلك.

وكان الحجاج يؤثرون الإبحار في سفن إيطالية من موانيء البندقية وجنوا وغيرها إلى القسطنطينية (عاصمة الإمبراطورية البيزنطية) ويشهدوا ما بها من أماكن دينية مقدسة قبل أن يتخذوا طريق البر إلى فلسطين نظرا لقلة نفقات طريق البر وأمانه.

ثم بدأ تفكير الأوروبيين يتجه إلى إيجاد أماكن لإيواء

المسافرين وكان هذا جزءا من واجبات الحركة الكلونية نسبة إلى دير كلوني.

ولم ينقض القرن الحادي عشر حتي أضحت الرحلة إلى بيت المقدس سهلة يسيرة.وبدأ سيل الحجاج يتدفق على المشرق العربي، وصارت كل قافلة تضم الآلاف من الرجال والنساء والأطفال .وقد استفادت الإمبراطورية البيزنطية من هذه الحركة بما تفرضه من ضرائب على الحجاج ، إلى أن ظهرت المتاعب فجأة نتيجة غارات السلاجقة وتوغلهم في آسيا الصغرى.

- التوسع المكاني بمحاولة إيجاد إقطاعيات جديدة والتي أغرت الكثير للالتحاق بتلك الحملات حيث انتشرت البطالة والتي كانت سببها سوء توزيع الثروة في العائلات الإقطاعية في أوروبا حيث يستأثرالابن البكر في العائلة بجميع الثروة ويحرم منها بقية الأبناء.

- رغبة التجار في السيطرة على منتجات المنطقة العربية وتأسيس متاجر ومستودعات تجارية فيها بالاشتراك مع الأمراء والنبلاء والإقطاعيين خاصة بعد الانتصارات التي حققها الإيطاليون على أمراء البحر المسلمين.

- وهناك أسباب اقتصادية أخرى، مثل قحط الموسم الزراعي والجوع والأمراض؛ مما دفع بالبسطاء والفقراء للاشتراك في تلك الحروب لقاء مأكلهم ومشربهم وملبسهم.

- وفتح اليهود خزائنهم لتجنيد المحاربين ورشوة المتخاذلين؛ لأنهم رأوا فرصة ذهبية لتقديم القروض الربوية إلى زعماء الحملات وسلطة الكنيسة ذاتها ؛بقصد إغراقهم في الديون؛ ولتحقيق هدفهم الاستراتيجي المتمثل في إضعاف قوة الإسلام والمسيحين معا، وعلى رأي المثل الفلسطيني «فُخَار يكسّر بعضه» ولاسيما وأن العهدة العمرية التي أُعطيت لنصارى القدس بناء على طلبهم؛ منعت أي تواجد لليهود في القدس.

أحوال المسيحيين في القدس قبل الغزو الصليبي:

-جاء في كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لصاحبه «المقدسي» الذي عاش في القرن الرابع للهجري /العاشر الميلادي،وصفا لحال «أهل الذمة» في القدس بأنها «كثيرة النصارى» وقد غلب عليها النصارى واليهود؛ وهذا يدلل على ما كان عليه أهل الذمة من إعزاز وتكريم.

-أما الرحالة الفارسي «ناصر خسرو «٤٥٣هـ/١٠٦١م ،وكان قد زار فلسطين قبل الغزو الصليبي بأربعين عاما؛ فإنه يقول : «إن الحجاج النصارى كان بوسعهم أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم».

ويقول الأستاذ زئيف ميخائيل الساعاتي :«إن النصارى كانوا إخوانا للمسلمين في اللغة والوطنية، وأن خلفاء المسلمين كانوا يسندون الى أصحاب الكفايات والمؤهلات منهم الوظائف العالية».

وقال: «إن الاضطهادات التي أصابتهم في بعض الفترات المحدودة نسبيا؛ إزعاجات من بعض السلاجقة ،أو في زمن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي -غريب الأطوار- تعود الى إنحراف بعض الحكام الذين لم ينج المسلمون أنفسهم من أذاهم وتعدياتهم».

ويقول وليد الخالدي: «إن الخلاف في العهود الإسلامية حول الأماكن المقدسة في القدس لم يكن خلافا بين السلطة الحاكمة والجاليات المسيحية، ولا كان بين هذه السلطة والجالية اليهودية ؛ بل كان بين الجاليات المسيحية ذاتها (الأرثوزكسية) الكنيسة الشرقية و(اللاتينية) الكنيسة الغربية ، وكان دور السلطة الإسلامية طوال تلك القرون

دور الحكم بين الكنائس المسيحية المتنازع على حقوقها في الأماكن المقدسة؛ وأدت السلطة الإسلامية دورها بالإشراف على نظام اصطلح على تسميته (الستاتيكون) أي الوضع الراهن، وهو مجموعة الأعراف والتقاليد حول تلك الحقوق تراكمت برضا واعتراف الكنائس المحلية والدول الأوروبية.

وفي عام ٤٨١ هـ اختير «ايربان الثاني» بابا لروما، وقد زاد نفوذه كثيرا وأصبح السيد المطاع في أوروبا . ومع أن النصارى في الأندلس قد بدأ وضعهم يتحسن فقد استولوا على «وشقة»عام ٤٨٩هـ ، وعلى مناطق ثانية وبذل «إيربان الثاني»كل ما يستطيع من دعم إلا أنه وجد أن يغزو المسلمين في قعر دارهم أو في قلب بلادهم فإن الإصابة في القلب أشد وقعا وأكثر أثرا وإذا ما نجح فإن الأطراف بطبيعة الحال تتداعى وتتساقط .

دعا البابا إلى اجتماع لرجال الدين يعقد في «كليرمونت» بين ١٨-٢٠ تشرين الثاني عام ١٠٩٥م ويوافق ١-١٠ ذي الحجة عام ٤٨٩هـ .

وعقد المؤتمر في الموعد المحدد وحضره ثلاثمائة مندوب ودارت المناقشات حول الأمور الكنسية، وقبل اختتام

المؤتمر بيوم واحد (يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة) ألقى البابا خطبة بين فيها الهدف الاساسي من المؤتمر وهو الحرب الصليبية ودعا الأساقفة والقساوسة إلى «مصالحة الله»، وقال [١]: «بما أنكم يا أبناء الله قد وعدتموه بأن تحفظوا السلام بينكم وأن تخلصوا أكثر مما مضى في المحافظة على حقوق الكنيسة، فإن عليكم وقد قوّم الله اعوجاجكم أن تؤدوا مهمة ملحة لكم ولله، تسطيعون أن تظهروا فيها مدى صدق نواياكم، عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في المشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها.

إن الأتراك [٢]، وهم شعب فارس قد هاجموهم، كما يعلم الكثيرون منكم، وتقدموا داخل الأراضي الرومانية إلى أن وصلوا إلى ذلك الجزء من البحر المتوسط، الذي يدعى «ذراع القديس جورج» [٣]، لقد انتزعوا شيئاً فشيئاً من

---

(١) فوشيه الشارتري / تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، دار الشروق، ص٣٦، الطبعة الأولى ١٩٩١، وانظر كذلك تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن ونسيمان، دار الثقافة، لبنان.

(٢) يقصد المسلمين، وقوله «الأتراك شعب فارس»، يعكس جهل الغربيين الفاضح بشعوب الشرق وأصولها.

(٣) ذراع القديس جورج، إشارة لبحر مرمرة، ومضيق البسفور.

أراضي المسيحيين، كما وهزموهم في سبع معارك، وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله، وإن سمحتم لهم بأن يتابعوا عدوانهم ليصبح احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن أشمل وأعم.. ياخزينا ويا عارنا إذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط وتستعبده الشياطين والعفاريت، على شعب، أنعم الله القدير عليه بالإيمان وتباهى باسم المسيح! آه كم من المعايير سترمون بها حتى من الرب نفسه، إذا لم تقوموا بعون من يعتبرون مثل أنفسكم في الدين المسيحي»[1] .

وأعطى توجيها للأمراء ورجال الدين وكبار التجار بأن يحيك كل محارب صليبا من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف رمزا للفكرة التي خرج ليحارب من أجلها .وقد تم تحديد سنة ١٠٩٧م موعدا للحملة الصليبية .وقال :«إن كل من يرحل إلى بيت المقدس بدافع التقوى والورع وبهدف تحرير كنيسة الرب وليس بغية الحصول على المجد أو المال فإنه يستطيع بهذه الرحلة أن يكفر عن ذنوبه وآثامه كافة».

وخاطب الجمهور «بأن من يموت منهم هناك فله المجد

(١) تاريخ الحملة إلى القدس، مرجع سابق، ص٣٦ .

إذ سيموت في المكان الذي مات فيه يسوع ،وقدم للحضور صليب الخلاص ليحملوه على كواهلهم أثناء حركتهم». وقال إن الكنيسة ستحمي أملاك كل غائب وسيحلل البابا الأمراء وكل إنسان من العقوبات الدنيوية المترتبة على الذنوب التي ارتكبت إذا اشتركوا بإخلاص في هذه الحرب.

بدأ البابا يتنقل في مدن أوروبا يدعو إلى هذه الحرب الصليبية وطلب من الأساقفة أن يبشروا بذلك وقام بطرس الناسك بدور كبير في هذا المجال إذ لبس رداء الزهد وسار حافيا يدعو إلى الحرب الصليبية وساعد الجميع في هذه المهمة انتشار الفقر في ذلك العام واجتياح السيول المدمرة عدة مناطق من أوروبا.

دعا البابا إلى اجتماع الجيوش في القسطنطينية وكلف مندوبا عنه ليقودها وهو «ادهمار»غير أن الجموع الشعبية التي انطلقت بدعوة بطرس الناسك قد سارعت مسرعة كالسوائم لا يحميها نظام ولا يتولى قيادتها أحد؛ يدفعها الحقد ويسيرها الطمع في النهب والأسلاب ، وسلكوا سلوكا منفلتا لا ضابط له فقد كانوا يرمون ويحرقون القصور في ضواحي المدينة ويتخاطفون صفائح الرصاص التي كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها. وكان البابا يأمل من هذه

الجموع أن تنتظر ليقودها مندوبه والعسكريون ليدخلوا جميعا مدينة القسطنطينية.

ولما رأى إمبراطور بيزنطة «الكسيوس» هذه الجموع بهذه الصورة من الوحشية والفوضى وما ألحقته من خراب على طول الطريق التي سلكتها إلى القسطنطينية طلب منها أن تبقى خارج أسوار المدينة ريثما يصل بطرس الناسك على حين أنه هو الذي سبق وطلب القوات بسرعة لتقف في وجه السلاجقة.

فلما وصل بطرس الناسك إلى القسطنطينية أكرمه الإمبراطور ونصحه بالانتظار ريثما تصل إليهم جيوش الأمراء النظامية ، غير إن الحقد العارم والطمع والرغبة في النهب والإسلاب قد جعل الجموع تتحرك نحو بلاد المسلمين ولما لم تنج من اعتداءاتها البلدان الأوروبية التي اجتازتها كما لم تنج منها بلاد البيزنطيين فشكل طبيعي أن يعم الدمار والخراب كل أرض تطأها من البلدان الإسلامية وفعلا كانت في منتهى الوحشية وارتكاب الجرائم وانتهاك الحرمات ، لم يسلم منها حقل ولا دار ولا إنسان ولا حيوان.

وتلتها جيوش الأمراء وكانت أقل فوضوية ولكن لم تقل عن سابقتها سوءا ولم تختلف عنها فتكا .

وتوالت الحملات الصليبية وأحرزت بعض النصر، وأسست إمارات لها واستقرت بعض الوقت ثم تحركت العاطفة عند المسلمين وبعض قادتهم فبدأوا يعملون لقتال الصليبية ولتوحيد جهود الأمة وأخيرا تم النصر واخرج الصليبيون من البلاد وقد قاوم هؤلاء الدخلاء المسلمون في الأندلس والفاطميون والسلاجقة والأتابكة والأيوبيون والمماليك ؛ وقد طردوا الصليبية نهائيا من بلاد الشام ومصر. وجاء دور العثمانيين فأنهوا الأثر الصليبي في ليبيا وتونس والجزائر.

ونتيجة الحروب الصليبية فقد سادت الفوضى وعم الخوف وزاد تفكك المسلمين وضعفهم في بداية الأمر حتى قيض الله لهم من جمع شملهم وخذل عدوهم .

---

(١) انظر : التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ج٦/٣٤ وما بعدها، ط٣ ١٩٨٧م، المكتب الإسلامي - بيروت.

- تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن ج٤/٢٣٠ ط١٥، ٢٠٠١م، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- الوسيط في تاريخ فلسطين، د. فاروق فوزي - ود. محسن محمد حسين، ص١٥٠، دار الشروق - الأردن.

الحروب وإثراء الفولكلور

عاشت فلسطين في شتى حقب حياتها تحت الخطر فلم تتوقف حركة التاريخ فيها منذ بداية مسيرته في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد؛ بسبب استراتيجية موقعها الذي يوصف بأنه أكثر العالم القديم توسطا، والذي يقتعد ملتقى للطرق ومفارقها.

ورغم الثمن الباهظ الذي دفعه أهل فلسطين ـ وما يزالون ـ من حريتهم من الطامعين الأبعدين أو من الجيران الاقربين؛ فإن الحياة في ظل الخطر لم تكن ظاهرة سلبية دوما ؛ بل كانت ظاهرة إيجابية كذلك ؛ لإنها شحذت الوعي، وأرهفت الحساسية، وجعلت من أهلها أناسا منفتحين ومتفاعلين مع أحداث العالم، بما أثر في نضج الشخصية الفلسطينية؛ بحيث أصبحت شخصية واضحة المعالم، يصعب إذابتها أو قهرها ،وجعل منها سدا منيعا ضد مزاعم الصهيونية «بانعدام الهوية الواضحة لشعب فلسطين وأرضه»[١].

---

(١) الوسيط في تاريخ فلسطين، د. فاروق فوزي ص٢٦٧، دار الشروق ١٩٩٩ – الأردن، وانظر الموسوعة الفلسطينية الدراسات الخاصة ج/٢، ص١٤١.

وتعد الفترة الأصعب في تاريخ فلسطين حين ازداد الخطر الفرنجي الأوروبي المعروف بالحملات الصليبية ، وما حملت من رؤى استعمارية إحلالية ؛كان من ثمرتها لاحقا ما سمى بوعد بلفور، الذي أعطى لليهود دولة على أرض فلسطين؛ بما زاد في معاناة أهلها من تهجير وقتل ..ونكبة..

وقد صاحب ذلك كله في إثراء أدبي ؛ خاصة الشعبي منه، الذي كان يمجد ويشعل روح المقاومة ضد هذا الغزو، وما يتبعه من انتصارات، وما ينتج عنه من استشهاد، أي فقد الحبيب؛ فظهرت الأغاني الدينية والاجتماعية المختلفة، وظهرت أغاني ظريف الطول الذي يحمل بندقيتة و تفخر به الحبيبة ؛ولا تريده أن يذهب إلى الغربة؛ فبلاده أولى به؛ ليدافع عنها ... وكذلك ظهرت الحكايات البطوية التي تتحدث عن شجاعة المحاربين، سواء على جبهة القتال، أو في تعاونهم واستأثارهم لإخوانهم، أو في صمودهم وجلدهم في مقاومة المعتدين .

الفـــولكـــــلــور

معنـاه وماهيـته ..

الفولكلور مصطلح أوروبي، حدد معناه الإنجليزيّ «وليام جون توفر» بتقسيمه إلى مقطعين هما "Folk، بمعنى الناس أو الشعب، وLORE، بمعنى المعرفة أوالحكمة، أي أنها تعني «حكمة الشعب»، بكل ما تعنيه هذه الجملة من دلالات على موروثات قديمة.

أما مجمع اللغة العربية في القاهرة فقد أقر مصطلح «المأثورات الشعبية»، كترجمة دقيقة للمصطلح الأوروبي «فولكلور»، باعتبار أن مواد المأثورات الشعبية تتمتع بالبعد التاريخي، والحيّوية، والاستمرار، أي أنها كانت ومازالت.

وهناك من يفرق بين التراث والمأثور، فالتراث ماكان شائعاً في عصرٍ ما، ثم اندثر أو تبدل، ولم يعد له وجود في حياة الناس، فيِ حين أن المأثورات الشعبية تتميز بالحيوية والانتقال بمضامينها، بل وفي معظم الأحيان بأشكالها

الأساسية عبر الاجيال، إلا أن هناك من يحاول التقريب بين المعنيين، بل ويجعلها نفس المعنى[1] .

وعلماء الانثروبولوجيا الثقافية (العلم الذي يدرس الثقافة الإنسانية)، يقسمون الثقافة إلى: ماديَّة Material Culture، وهي الأشياء المحسوسة التي يصنعها الإنسان كالمأوى والأثاث والأدوات والملابس.. وغيرها من مظاهر الحياة، وكل ما يتصل بالإنتاج والتكنولوجيا، والاختراعات.

وثقافة روحيّة Spiritual Culture، أو الثقافة غير المجسدة، كالمهارات والمعايير والمعرفة والمعتقدات والاتجاهات واللغة، وكل ما ينتقل عن طريقها من جيل إلى جيل.

واعتماداً على هذا التقسيم للثقافة، فإن الفولكلور يمكن أن يكون مجسداً في شيء، أي كجزء من الثقافة المادية، وغير مجسد أي كجزء من الثقافة الروحية.

فألوان التعبير الفولكلوري المجسدة في شكل ما: الآلات الموسيقية، الأواني، الأزياء، السجاد، رسوم الأقمشة، التماثيل الصغيرة، وكل ما يمتّ بصلة إلى الفنون التشكيلية، والصناعات الشعبية والحرف والمأوى والطعام.

---

(١) المعجم الوسيط - مادة فولكلور .

وألوان التعبير الفولكلوري غير المجسدة كثيرة ومتنوعة، وتمسّ مجالات عديدة منها: الحكايات، القصص الخرافية، روايات الخوارق والأساطير، المعتقدات المتعلقة بفترات وأماكن معينة. كما تدخل في الفولكلور الموسيقى الآلية والصوتية، والأغاني المرتبطة بفترات من الحياة اليومية لجماعة معينة، أو بأحداث أثرت في تاريخ جماعة ما ،سواء أكانت من الأغاني الدنيوية، أو الدينية.

والمأثور الشعبي قديم قدم الإنسان، وتحتوي المدوَّنات المخطوطة التي تركها الناس قديماً على أمثلة للمأثورالشعبي، وعندما طور الإنسان نظام الكتابة، بدأوا في تسجيل أو تدوين القصص الشعبية، وليس من الضروري أن يكون المأثور مدوناً، إذ أن كثيراً منه قد تناقله الشعب شفهيًا من شخص لآخر، وحتى يومنا هذا، فإن بعض الشعوب ليس لها لغة مكتوبة، ولكن لديها الأغاني الشعبية، والأساطير والخرافات وعناصر المأثورات الشعبية الأخرى، ونجد أيضاً ذلك في المجتمعات الريفية في البلاد المتحضرة - خاصة الذين لايجيدون القراءة - نجدهم يحفظون الكثير من الأغاني الفولكلورية، حيث ينتقل إليهم عن طريق المحاكاة والتقليد. ولقرون عديدة تعلم الأطفال الألعاب الشعبية عن طريق مشاهدة ومحاكاة من سبقهم. وحتى عندما يهاجر

الناس من بلد إلى آخر فإنهم يأخذون معهم مأثورهم الشعبي، ويقومون بتكييفه مع بيئتهم ومحيطهم الجديد.

ومن القرن السادس عشر الميلادي وحتى التاسع عشر الميلادي - على سبيل المثال - تم ترحيل الآلاف من غربي أفريقيا إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية حيث استعبدوا، فتحوي الحكايات الشعبية لغربي إفريقيا على قصص حول عنكبوت ماكر يسمّى أنانسي، وعلى مر السنين واصل الناس سرد الحكايات عن أنانسي، ومع ذلك فقد تغيرت القصص حول العنكبوت بصورة تدريجية لتعكس الحياة في العالم الجديد، واليوم أصبح الأنانسي رمزاً شعبياً محبوباً في المأثور الشعبي الأفريقي في كل من غربي أفريقيا والمنطقة الكاريبية[1] .

وكذلك نجد أن مصطلح «فنون شعبية»، يعني «الفولكلور»، بدلالاته العلمية والواقعية، وبأشكال ابداعاته الشعبية، الفكرية والمادية والوجدانية، وباعتبار أن الفن له المقدرة على التعبير بمختلف الوسائل الفنية، ولهذا يستعمل كثير من الباحثين مصطلح تراث للدلالة على الفولكلور كمادة وعلم.

---

(١) انظر الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، الجزء السادس، ص١٨١، وما بعدها.

وعلى هذا نستطيع أن نعرّف الفولكلور على أنه مأثور أو تراث فني شعبي كتابي أو شفاهي تتناقله الأجيال عبر سنين ليست بالقصيرة، بغرض الإعانة على مشاق العمل أو التعبير عن أفراح ومناسبات اجتماعية ودينية، وهو جزء من الثقافة الشعبية التي تمثل التراث القديم، لأنه ينبع من الأزمنة السحيقة، وهو يتيح للإنسان المعاصر الغوص إلى الأصول الأولى للأنشطة الثقافية التي عرفتها البشرية.

وللفولكلور أهمية كبرى في البلدان النامية فهو من عناصر تحديد هوية الفرد وانتمائه إلى جماعة عرقية؛ لذا كان هذا البحث ليؤصل ارتباط الإنسان الفلسطيني بأرضه، وتمسكه بهويته التي يحاول بنو يهود طمس معالمه بإقامة دولتهم على تراب فلسطين الطاهر، بالرغم من أن كل حبة رمل تلعن وجوده وتثبت في الوقت ذاته تجذر بني كنعان على هذه الأرض المباركة. ويمثل الفولكلور الفلسطيني العامل الأساسي في تعميق الشعور الجمعي والشخصي بالانتماء واثبات الذات ومحاولة الجمع بينهم برباط قدسية المكان والزمان.

ظهور الفولكلور:

اعتقد العلماء الغربيون في القرن التاسع عشر الميلادي أن التراث الشعبي في أزمنة غابرة كان مشتركاً

بين كل أفراد المجتمع، كما كان معظم الناس آنذاك يعيشون في المجتمعات الريفية. وعبر القرون، انتقل عديد من الناس إلى المدن وبدأوا تدريجياً يفقدون الاتصال بما سموه بالتقاليد الشعبية الأصيلة، ووفقاً لما ذكره علماء القرن التاسع عشر، فقد حفظت تلك التقاليد بوساطة (الشعب)، أي الفلاحين غير المتعلمين الذين لم يتغير أسلوب حياتهم لمئات السنين إلا قليلاً.

كان من بين علماء التراث الشعبي الأخوان الألمانيان جاكوب وفيلهلم جريم. ففي الفترة ما بين ١٨٠٧م إلى ١٨١٤م قام الأخوان بجمع الحكايات الشعبية من القرويين الذين عاشوا قرب مدينة كَاسُل في ألمانيا. واعتقد الأخوان أنهما بجمع هذه الحكايات الشعبية فإنهما يحفظان موروثات كل الألمان على مدى الزمن. وأصبحت الحكايات التي جمعاها مشهورة بحكايات جريم الخرافية للأخوين جريم.

ولكن صوراً من تلك الحكايات وجدت في أماكن أخرى من أوروبا، والشرق الأدنى، وآسيا. واليوم؛ يعرِّف العلماء الشعب بمعناه الخاص بأنه مجموعة من الناس تشترك في عامل تواصل مشترك واحد على الأقل، هذا العامل ربما يكون الجغرافيا، كما في التراث الشعبي لمنطقة جبال الأوزاك في الولايات المتحدة، أو الدين كما في التراث الشعبي

الإسلامي، أو المهنة كما في التراث الشعبي لرعاة البقر، أو الخلفية العرقية كما في التراث الشعبي الايرلندي.

ويعتقد بعض العلماء أن مصطلح الشعب يمكن إطلاقه على الأسرة، وذلك لأن العديد من الأسر لها تقاليدها الخاصة بها.

خصائص التراث الشعبي :

يمكن أن يكون التراث الشعبي قصيراً وبسيطاً، أو طويلاً ومعقداً ومن النماذج الشهيرة للتراث الشعبي الأمثال السائرة المختصرة مثل:

الضرُّة مُرَّة

العتب ع النظر

لعب الفار بعبّه

زي الثور الابرق

حاميها حراميها

الاعادة فيها الإفادة

الصباح رباح

كبير القوم خادمهم

ومن ناحية أخرى؛ نجد أن هناك مسرحيات شعبية في أندونيسيا تبدأ من مغيب الشمس وتنتهي عند الفجر.

ومن الصعوبة بمكان اصطناع التراث الشعبي، كما يفعل الآن اليهود في فلسطين حيث ينسبون بعض الأزياء والأكلات الشعبية الفلسطينية ورقصة الدبكة إليهم.

ولاشك أن الأغاني والقصص والمواد الأخرى التي صارت تراثاً شعبياً، هي بالطبع أفكار وتأملات مختلف الأفراد، غير أن أولئك الأفراد كانوا قد ملكوا قدرات فنية مكنتهم من إبداع فكرة أو أسلوب راق للآخرين عبر السنين.

ويدوم التراث الشعبي فقط إذا احتفظ بذلك الاغراء فلامس شغاف القلوب وعبر عن آمالهم وطموحاتهم وحبهم، إذ الناس لا يسردون قصصاً ولايتقيدون بعادات لامعنى لها بالنسبة لهم. وهذا هو السبب في مواصلة الناس تداول التراث نفسه بصورة مكررة.

ولكي يعد التراث الشعبي تراثاً أصيلاً يجب أن يكون للشيء أو الفقرة المعنية صورتان على الأقل، كما يجب أن تكون قد وجدت في أكثر من فترة واحدة ومكان واحد على

سبيل المثال ميَّز العلماء أكثر من ألف رواية مختلفة «لقصة سندريلا»، وتطورت تلك النصوص عبر مئات السنين في العديد من البلدان، منها الصين، وفرنسا، وألمانيا، وتركيا.

وغالباً ما تحدث التغييرات في التراث الشعبي عندما تنتقل القصة من شخص لآخر، وهذه التغييرات التي تسمى التباينات غالباً ماتطال كلمات وموسيقى الأغاني الشعبية. وربما تستخدم نفس كلمات الأغنية الشعبية مع ألحان مختلفة، أو توضع كلمات مختلفة على نفس اللحن.

المواسم في عهد صلاح الدين الأيوبي

إن المواسم وعادة الاحتفال بها، مسألة أوجدها وحض عليها القائد صلاح الدين الأيوبي، فبعد تحرير القدس من أيدي الفرنجة الغزاة، خشي صلاح الدين ومعاونوه من إمكانية عودة الغزاة الأوروبيين، ووقوع المدينة المقدسة بأيديهم مرة أخرى، وقطعاً لدابر أي احتمال من هذا القبيل، فقد اتخذ صلاحٍ الدين خطوتين في غاية الأهمية: الأولى أنه استقدم عدداً من القبائل العربية وأسكنها في المناطق المحيطة بالقدس، ومازالت هذه المناطق تحمل أسماء القبائل التي سكنت بها إلى اليوم. فهناك بنو مُرّة، وبنوزيد، وبنو الحارث، وبنو حميد، وكان هدف صلاح الدين أن يحيط القدس بسوار بشري عربي يقوم في مواجهة الحملات الصليبية.

وأما الخطوة الأخرى، فقد كانت ابتداع فكرة المواسم التي تقوم على أساس تجميع المواطنين وحشدهم، بقصد الاحتفال ظاهرياً في منطقة القدس وماجاورها في الفترة الزمنية الواقعة بين أعياد الميلاد وأعياد الفصح، ففي هذه الفترة من كل عام يتجمع في مدينة القدس وماحولها،

أعداداً كبيرة من الأوروبيين، بحجة الزيارة والحج والاحتفال بأعياد الميلاد، ومن بعدها أعياد الفصح، وكان صلاح الدين يخشى أن يستغل الأوروبيون فرصة تواجدهم وتحشدهم بأعداد كبيرة في هذه الفترة، للقيام بعمل عسكري والانقضاض على القدس، واحتلال المنطقة من جديد، وتحسباً لكل طارىء، كان لابد من اتخاذ إجراءات وقائية مضادة، هدفها حشد وتجميع المسلمين، بقصد إظهار القوة وإخافة الأعداء، واستخدام تلك التحشدات بالفعل إذا لزم الأمر.

وهكذا ولدت فكرة المواسم، والاحتفال بأعياد أنبياء حقيقيين، فكان موسم النبي موسى الذي هو أحد المواسم الرئيسية، والذي يتجمع فيه أكبر عدد ممكن من الناس، ويشارك فيه وفود كثيرة من مختلف أنحاء فلسطين، بحيث تبدو المنطقة بأكملها وكأنها مستنفرة ومستعدة على الدوام.

ويجري ذلك كله تحت ستار احتفالات طابعها شعبي ترفيهي، وعنوانها ديني، ولكنها في الحقيقة حشود هدفها سياسي عسكري. ومع مرور الزمن وابتعاد الخطر الاستعماري الصليبي، نسي الناس الأهداف السياسية

والعسكرية للمواسم، حيث لم يبق لها مبرر قط، واستمروا يواصلون الاحتفال بالمواسم في المناطق ذاتها وبالطريقة نفسها وبالأسماء إياها، ولكن بقصد الترفيه والترويح عن النفس فقط.

كان القائد صلاح الدين الأيوبي، رجل دولة بعيد النظر، بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً ممتازاً، فقد ظلت عادة الاحتفال بالمواسم التي أوجدها وحض عليها، قائمة بعد أن حققت أغراضها الأساسية مئات السنين، وتحولت لتصبح جزءاً من تراث شعبنا وتقاليده العريضة التي حافظ عليها حتى عام ١٩٤٨م، عام الكارثة التي احتل فيها الصليبيون الجدد الصهاينة - برابرة العصر الحديث - العنصريون، القسم الأكبر من وطننا، فانقطعت عادة الاحتفالات بالمواسم، وانشغل أبناء شعبنا بأشياء أهم من الترفيه والترويح عن النفس، إذ لم تترك لهم ظروف التشرد وصعوبة الحياة فرصة للقيام بتلك الأمور.

والاحتلال لايستهدف فقط اغتصاب الأرض، وإن كان ذلك في رأس قائمة أهدافه، ولكنه يريد التدمير الكامل لشعبنا مادياً ومعنوياً، وذلك من أجل ضمان استمرار احتلال الأرض، ولذلك نراه يبذل جهوداً دائبة ومنهجية،

لتحطيم قوة شعبنا البشرية، ونسف جميع المثل والتقاليد والعادات والأخلاق، ومسح تراثنا الفني، وتزييف تاريخنا وتشويهه وتغيير الملامح الديموغرافية للمناطق المحتلة.

وفي هذا السياق نفهم لماذا سرق الصهاينة - مثلاً - الثوب الفلسطيني المطرز - لباس نسائنا الشعبي المعروف - وألبسوه لمضيفات طيرانهم، مدعين أن ذلك هو لباسهم الشعبي.

وإذا أدركنا ذلك وعرفنا خطورة ما يراد بنا ولنا، يصبح من واجبنا، بل من أهم واجباتنا، أن نتمسك بكل ما نملك من قوة بعادات شعبنا وتقاليده، بمثلنا وقيمنا، بخرافاتنا وأساطيرنا، بمواويلنا وأهازيجنا وأغانينا، بكوفيتنا وعقالنا، بطوابيننا وقدورنا وجرارنا، وبنمط حياتنا كلها، لأن مقاومة الاحتلال ومحاربة العدو، لا تقتصر على حمل السلاح، وإطلاق النار، بل تتعدى ذلك إلى مجالات أوسع وأرحب، لأن الصراع الدائر بيننا وبين الصهاينة يطال جميع مقومات الوجود، وإن عاداتنا وتقاليدنا وتراثنا هي إحدى مقومات وجود شعبنا وبقائه، إن الأعداء يريدون لنا الانقراض، ونحن نختار البقاء، وعلينا أن نبقى.

ويتساءل البعض؛ هل كان من الحكمة تخلّي الناس

عن عادة الاحتفال بالمواسم؟ وهل من الضروري العودة لإحياء تلك العادة؟ ربما كان من الصعب العودة للاحتفال بالمواسم نظراً لتغير الظروف والأحوال. ولكن يمكن تجديد تلك العادة وتطويرها بحيث تخدم أغراضنا مثل التي فكر فيها صلاح الدين الأيوبي ومستشاروه، فإن أي اجتماع لمجموعة من الناس للاحتفال بأية مناسبة في ظل الاحتلال يثير في النفوس شعوراً بالإحساس بالوجود والقوة ويرفع المعنويات ويعزز من تماسك الناس وتعارفهم وهذا في حد ذاته أحد أشكال مقاومة الاحتلال، ثم ألا يمكننا القول إن عادة الاحتفال بيوم الأرض التي أصبحت تقليداً سنوياً لدى جماهيرنا في الأرض المحتلة، هي في الحقيقة شيء قريب من عادة الاحتفال بالمواسم بالطريقة التي فكر بها صلاح الدين[1]. ومن هذه المواسم :

موسم النبي موسى

وهو من وضع السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما أشرنا سابقاً، ثم جاء من بعده السلطان الظاهر بيبرس بعد مضي تسع وسبعين سنة من وفاة صلاح الدين وبنى القبة والمسجد على ضريح سيدنا موسى عليه السلام، الذي يقع

---

(١) طفولة فلسطينية / محمد الريماوي .

في نشر من الأرض بين القدس وأريحا، ووقف على إطعام الطعام لزواره إبان موسم الزيارة من كل عام من الأوقاف، ما كفى ريعه لدوام المأثورة الخالدة إلى الآن وماسيكفي الاستمرار عليها في قابل الأيام فكان عمل السلطان الملك الظاهر أجدى نفعاً وأبقى على وجه الدهر[١].

وهو عادة ما يقام بعد صلاة الجمعة السابقة ليوم «الجمعة العظيمة عند المسيحيين[٢]، ويقع عندهم في خلاله خميس الغسل ثم يعقبها سبت النور وأحد الفصح المجيد. فيسير موكب النبي موسى من المسجد الأقصى باحتفال ديني مهيب حاملين أعلاماً خاصة يتصدره المتصرف والقاضي الشرعي ورؤساء البلدية والعلماء والأعيان، والمجلس الإسلامي الأعلى وإدارة الأوقاف، يخرجون بالتهليل والتكبير، فيجتازون محارب باب الساهرة وباب حطة المقابلة لأبواب المسجد الأقصى وباب الأسباط ثم ينحدرون إلى الطريق المؤدي إلى اريحا، ويستريح الركبان في موضع يقال له رأس العمود قرب قرية سلوان، ثم يستأنف الركب سيره إلى مقام الكليم، وتستمر الزيارة

(١) قبس من تراث المدينة والقرية الفلسطينية، صباح السيد عزازي، دار الجليل، الطبعة الأولى، ص١٣٩ .

(٢) الفنون الشعبية في فلسطين، يسري جوهرية عرنيطة، وزارة الثقافة الفلسطينية، الطبعة الثالثة، ص١٦٥ .

ستة أيام بلياليها. وفي اليوم السابع الذي هو يوم الخميس يعود الركب إلى نفس الطريق، وعند وصوله إلى محله الوادي يؤخذ علم النبي موسى من قبل السادة الحسينية إلى دار نقابة الأشراف حيث يحفظ العلم للموسم القادم(١) .

وفي عهد الانتداب البريطاني كان الركب ينشدون الأناشيد الثورية منددين بالانتداب والغزوة الصهيونية على أرض فلسطين، طالبين هبة من العرب لاستعادة عزتهم وأمجادهم ومن هذه الأناشيد:(٢)

شبوا على الخصم اللدود

نار الوغى ذات الوقود

نحن الأولى فتحوا البلاد

دانت لنا كل العباد

يا ايها العرب الكرام

إلى متى أنتم نيام

قوموا إلى الموت الزؤام

وامشوا له مشي الأسود

---

(١) قبس من تراث المدينة، مرجع سابق.

(٢) موسوعة الفولكلور الفلسطيني، نمر سرحان، ج٣، ص٥٦٨ .

موسم النبي روبين

عرف ا لكنعانيون النهر «روبين» باسم «هربعل»، ثم حرّف إلى بيلوس Belus، ويصب جنوبي يافا علي بعد ٤١ كم منها، وهو مشهور بموسمه المعروف، ففي كل سنة يؤمه خلق كثير من يافا والرملة واللد وقراها لزيارة «مقام روبين»، الذي بناه ولي الله الشيخ شهاب الدين بن ارسلان - الذي توفي عام ٤٤٨هـ - وتتوالى الزيارات والاحتفالات حول هذا المقام طيلة فصل الصيف»[١] .

وكان الناس يقيمون الصلاة هناك في مقام النبي روبين، بالإضافة إلى ذلك كانت النساء تدق الطبل والمزامير، وتعزف وتغني أغاني خاصة بهذا الموسم[٢] .

وكانت تقام ألعاب الفروسية ومبارزة السيف والترس[٣]. وهناك قول مأثور يعبر عن شغف أهل يافا بحضور هذا الموسم، وهذا القول يجري على لسان المرأة اليافيّة (يابتروبنّي يابطلقني)، أي إما أن تأخذني إلى موسم روبين أو الطلاق.

---

(١) بلادنا فلسطين، مصطفى الدباغ، الجزء الأول / ٣٥ .

(٢) قبس من تراث المدينة (مرجع سابق)، ص١٣٦ .

(٣) الفنون الشعبية في فلسطين (مرجع سابق)، ص١٧٩ .

وكان علم روبين يخرج من يافا، ويتسلمه مفتي فلسطين، ويسير موكبه بعد أن يترجل من السيارات قرب مخاضة روبين، وبعد اجتياز المخاضة يبدأ الاحتفال الشعبي الكبير، حيث يركب المفتي حصاناً ويحيط به المشايخ، وأصحاب الوجاهات، وكانوا يطلقون الرصاص في الهواء، وتسير فرق الكشافة من مدن فلسطينية كثيرة تردد أناشيدها الوطنية[1] .

موسم النبي صالح

وهو يوم واحد، وكان يقام في مشارف مدينة الرملة وتحضره مواكب من الرملة واللد وقراهما، ويحتفل فيه أهل الطرق الصوفية، وأعداد غفيرة من الناس وتعرض فيه الصناعات المحلية، وتقام الرقصات الشعبية والدبكة،. ويحضر له بسلق البيض مع ورق البصل أو الخبيزة ليكتسب لوناً جديداً[2]. وكانت تصنع فيه حلاوة بيضاء اسمها حلاوة النبي صالح[3] .

ومن الأغاني المرددة في هذه المناسبة: [4]

يانبي صالح ما أبيض حجارك

---

(١) موسوعة الفلكلور الفلسطيني، «مرجع سابق»، الجزء الثالث، ص٥٦٦ .

(٢) موسوعة الفلكلور، ج٣، ص٥٦٦ .

(٣) قبس من تراث المدينة (مرجع سابق)، ص١٣٧ .

(٤) الفنون الشعبية في فلسطين (مرجع سابق)، ص١٨١ .

ومحبة بالله كل واحد زارك

يانبي صالح يا ابو التابوت

تمنيت من الله بحدك أموت

وفي ربيع ١٩٤٨ لم تقم أية احتفالات بهذا الموسم أو المواسم الأخرى في الوقت الذي بدأت تتأزم فيه الأمور، والصراع العربي - الصهيوني يشتد والطرق والمسالك بين المدن والقرى تضطرب.

وهناك أعياد ومناسبات دينية أخرى، يستغلها الفلسطينيون من مختلف البيئات والأديان للترفيه عن أنفسهم وللقيام أيضاً بزيارة تلك الأماكن المقدسة للتبرك بها.

الثورات الفلسطينية وإثراء الفولكلور

سجل شعبنا الفلسطيني أولى احتجاجاته ومارس إرادته الوطنية والشرعية في رفضه للاستيطان والهجرة خاصة بعد وعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧م الذي جعل من فلسطين وطناً قومياً لليهود، ونظر إلى العرب على أنهم جماعات غير يهودية مقيمة في فلسطين!

وهذه النظرة انبثقت في القرن التاسع عشر بين أشراف الانجليز وهي فكرة إرجاع اليهود ادعاء منهم أن رسالة المسيحية التي انسلخت عن اليهودية لن تتم إلا بإرجاع هؤلاء اليهود إلى فلسطين وقد شغلت هذه الفكرة الرأي العام البريطاني كثيرا حتى أثناء حروب انجلترا مع محمد علي عام ١٨٤٠م يقول (ارل اف شنتيري) لوزير خارجية انجلترا في ذلك الوقت وهو «بالمرستون»: إن الوزير أرسل من قبل الله لإرجاع اليهود إلى فلسطين «.وطغت هذه الأفكار الدينية حتى أعمت البصائر فدفعت بالجنرال «وندهام ديدس»أول سكرتير عام لحكومة الانتداب في فلسطين إلى أن يقول :إن المسيحية قد أجرمت في حق

اليهود؛ فعليها أن تكفر عن ذلك بمنحهم وطنا قوميا في فلسطين وتسهيل هجرتهم وتقديم المساعدة لهم[١].

فمنذ عقد اليهود مؤتمرهم الصهيوني العالمي في سويسرا سنة ١٨٩٧م، ومابعده من مؤتمرات حتى سنة ١٩٢٩م، وهم يريدون أن يشمخوا شموخ الثعلب يريد أن يثب على العنقود، وفي كل مؤتمر صهيوني عالمي تؤخذ مقررات على نوعين: سرية، وهي التي تتمشى على ماتقرره الهيأة الخفية من «حكماء صهيون»، ومقررات علنية، وهي للتضليل والدعاية الخادعة[٢].

وكان اليهود في فلسطين والخارج يعلنون أنهم يريدون الوصول إلى امتلاك «المبكى» وهو الجدار الغربي من المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله، ومداميكه السفلية حجارة ضخمة يزعم بعض اليهود أنها قد تكون بقايا الهيكل الذي بناه هيرودس الكبير، يوم كان هذا الرجل ملكاً على اليهود في ظل الأمبراطورية الرومانية (ومدة هيرودس من ٤٠ ق. م. إلى ٤ ق. م)، وكان هيرودس أصله من الأنباط في

---

(١) د. حسني محمود حسين، تصريح بلفور... الجريمة والمقاومة، مجلة أفكار العدد ٤٧ كانون الأول ١٩٧٩م.

(٢) رجال من فلسطين، ص٧٩ .

جنوبي - شرق الأردن، فنصفه عربي كما يقول المؤرخون.. وأما المداميك العليا من هذا الجدار فقد بنيت في عصور رومانية لاحقة، وإنما صار اليهود - حسب زعمهم - يزورون هذا المكان ويبكون عنده نادبين ضياع ملكهم، متضرعين إلى الله أن يرده عليهم، لأن هذه المداميك باعتقادهم هي الحجارة الوحيدة الباقية من أثر هيكل هيرودس، وأما عند المسلمين، فهذا الجدار هومربط «البراق»، الشريف في ليلة الإسراء المباركة، وليلة المعراج، فهو قطعة من الأقصى. قال الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[(١)] .

وتنفيذاً للمقررات السرية لمؤتمر سويسرا ١٩٢٩، أخذ اليهود يظهرون الشراسة النابعة من الجبن الذي لم يزل من جبلاتهم الموروثة، فدعوا في صحافتهم إلى إلهاب الجو بالدعوة إلى امتلاك حائط المبكى، والذي حاولوا امتلاكه بعد عام ١٩١٧، مرتين: بالإغراء المالي الفلكي الأرقام، فالمرة الأولى كانت في أثناء الإدارة العسكرية على يد «ستورس»، حاكم القدس العسكري، ثم الحاكم المدني

---

(١) سورة الإسراء، الآية (١) .

مباشرة سنة ١٩٢٠، فما لقي اليهود إلاَّ الخيبة. ثم المرة الثانية بعد إنشاء المجلس الإسلامي الأعلى، حيث عرضوا أن يبنوا مدرسة كبيرة للمسلمين في أي مكان يختارونه، فكانت خيبتهم هذه أشد من الأولى.

ثــورة البـــراق :

ولما ايقن اليهود أن امتلاكهم «المبكى» دونه خرط القتاد، رأوا أن يستعملوا العنف، وهم آمنون أن الإنجليز إذا أعطوهم الفرس فيعطون اللجام بلا جدال!، وكان ذلك اليوم يوم جمعة في العام ١٩٢٩، فاحتك اليهود في القدس بالعرب في وضح النهار، فصدهم العرب صداً عنيفاً قاصماً للظهر، وجندلوا منهم عدداً في لمحات، وإذا بالشرر يتطاير إلى جوانب البلاد ولاسيما في صفد في الشمال، وفي خليل الرحمن (حبرون)، على بعد ٣٦ كيلومتراً من القدس للجنوب، أما يهود صفد فكادوا يمحقون، وأما يهود الخليل وكانوا يسكنونها، فاستؤصلوا استئصالاً وعفيت آثارهم حتى عادوا إليها بعد حرب ١٩٦٧ .

ولما جاءت ١٩٤٨ كانت فظائعهم الوحشية تجل عن الوصف، قبحهم الله، أنهم قوم ماكرون لم يغيروا ولن يغيروا من طبائعهم شيئاً عما كانوا عليه في مصر، ومن هنا

سميت هذه الثورة سنة ١٩٢٩ بثورة «البراق»، باصطلاح علم الثورات في فلسطين[١].

واحتشدت قوى اليهود في لندن والقدس بعد ثورة ١٩٢٩م «ثورة البراق»، تطالب بمعاقبة العرب عقاباً إرهابياً، فظيعاً، وهو التعليق والإعدام، ولماذا لا تلبي حكومة فلسطين ما توعز به إليها، الحكومة الأم في لندن و«حكماء صهيون»، فوق حكومة لندن؟ ولماذا لاتختار حكومة فلسطين عدداً من شباب العرب وتقدمهم إلى المحكمة العسكرية، وتحصل من المحكمة على ما تريد من أحكام ترضي «نيرونية» الإنكليز التي وضعت نفسها في خدمة «حكماء صهيون»، ولماذا لا؟ والحالة هذه فمن المنطق أن يتصيد الإنكليز عن طريق المحكمة العسكرية التي اصطنعوها شباباً عرباً للحبال المهيأة، من صفد والخليل. فحكموا على فؤاد حسن حجازي، من صفد، وعطا أحمد الزير، ومحمد خليل جمجموم من الخليل بالإعدام في سجن عكا، وعين صباح ١٧ يونيو ١٩٣٠ لتنفيذ هذه الأحكام، وحتى يموه الإنجليز على العالم بأنهم قد حكموا ولو على يهودي واحد قتل أسرة عربية في يافا بكاملها، فقد اختاروا يهودياً اسمه «خانكين»،

---

(١) أنظر، رجال من فلسطين، مرجع سابق، ص٨١ .

وقالوا: «قد حكمنا على هذا بالإعدام أيضاً، ولكنه رفل بعد ذلك بالهناء والحياة الطويلة».

وهب عرب فلسطين يحتجون ويستنكرون، ويطلبون على الأقل تخفيض الأحكام، واستصرخوا ملوك العرب وامراءهم، وكان هذا على يد موسى كاظم باشا الحسيني، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمرات الفلسطينية، فلم يبق ملك عربي أو أمير أو زعيم إلا ورجا من ملك الإنجليز أن يستعمل حقه الملكي فيأمر بتبديل الأحكام أو تخفيفها، ولا أحد يسمع في لندن أو القدس، ووضعت كرامة العرب في الميزان، فرفست لندن هذا باقدام فولاذية ولم ترد على أحد[١]، فليس للعربي في ذلك اليوم من يحميه وينجيه من «الحبلة» التي لاتزن أكثر من ٥٠٠ غرام!

«حجازي وجمجوم والزير» ذهبوا فداء فلسطين، وفداء للعرب، وأصبحت أسماؤهم مستقراً في الشغاف من قلب تاريخ فلسطين، كانوا أول قوافل الشهداء.. وراح المغني الشعبي يذكر إعدام الأبطال الثلاثة في بيت من الدلعونا يحمل معاني الاستنكار على السلطات المتواطئة وعلى رأسها المندوب السامي، ويحمل في طياته الدعاء إلى المولى عز

(١) المرجع السابق، ص٨٤ .

وجل أن يجازي الطغاة، حيث الشعب أعزل من السلاح، ومن القيادة الوطنية لوطنه حيث كانت بيد الإنجليز:

من سجن عكّا وطلعت جنازة

محمد جمجوم وفؤاد حجازي

جازي عليهم ياربي جازي

المندوب السامي وربّعُه عُموما

وفي بيت آخر من «الدلعونا»:

محمد جمجوم ومع عطا الزير

فؤاد حجازي عِزٍّ الذخيرة

انظر المقدر والتقادير

باحكام المولى تايعدمونا

وقد تحولت هذه الأهزوجة إلى ملحمة خلدت أبطال سجن عكا الثلاثة.

أما صحيفة «الزهور» والتي تصدر في حيفا (١٩ يونيو ١٩٣٠)، فقد وصفت أحداث يوم الإعدام بقولها: «لم تجتز فلسطين في أدوارها السابقة يوماً مثل يوم ١٧

يونيو (حزيران)، الرهيب، لقد تصاعدت أصوات المؤذنين على المآذن تستنزل الرحمات، وقرعت نواقيس الحزن في الكنائس، وولولت النساء وتصاعد عويلها في البيوت، وتساقطت الدموع غزيرة من مآقي الرجال المجتمعين في الجوامع والمعابد».

وكان الشهيد فؤاد حجازي يقول لزائريه: «إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز عن الأمة العربية الكريمة، فليحل الإعدام في عشرات الألوف مثلنا لكي يزول هذا الكابوس عنا تماماً».

وكتب وصية وبعث بها إلى صحيفة اليرموك فنشرتها يوم ١٨/٦/١٩٣٠م بخط يده وتوقيعه، وقد قال في ختامها:

«إن يوم شنقي يجب أن يكون يوم سرور وابتهاج، وكذلك يجب اقامة الفرح والسرور في يوم ١٧ حزيران من كل سنة، إن هذا اليوم يجب أن يكون يوماً تاريخياً تلغى فيه الخطب وتنشد الأناشيد على ذكرى دمائنا المهراقة في سبيل فلسطين والقضية العربية»[١] .

وقد خلدهم الشاعر إبراهيم طوقان بقصيدة «الثلاثاء

(١) الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثالث، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص٤٧٨، ٤٧٩ .

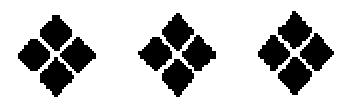
الحمراء» لرباطة جأشهم في مواجهة حبل المشنقة، فرثاهم بقوله[١]:

قسماً بروح «فؤاد» /تصعدُ من جوانحه زكية

تأتي السماء حفيةً فتحل جنّتها العلية

مانال مرتبة الخلود بغير تضحية رضية

عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية

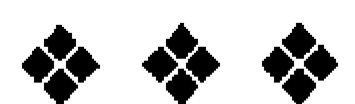


قسماً [٢]بروح «محمّد» تلقى الردى حلو الورود

قسماً بأمك عند موتك وهي تهتف بالنشيد

وترى العزاء عن ابنها في صيته الحسن البعيد

مانال من خدم البلاد أجلّ من أجر الشهيد



قسماً بروحك يا «عطاء» وجنة الملك القدير

---

(١) ديوان إبراهيم طوقان، ص٩٧ .

(٢) مع ملاحظة أنه لا يجوز القسم بغير الله .

وصغار الأشبالُ تبكي الليث بالدمع القرير

ما أنقذ الوطن المفدى غيرُ صبّار جسور

- وقد صور مغني الدلعونا حواراً على لسان جمجوم مخاطباً أخاه يوسف:

يوسف يايوسف وصاتك أمّي

واصّحَ يايوسف بعدي تتهمّي

منشان الوطن رخصت بدمي

يوم الثلاثا تعّ ودعونا

- وقد دوّت أصوات النساء بالزغاريد والمهاهاه عندما ارتفعت الراية السوداء على قلعة عكا التاريخية معلنة شنق البطل الأول:

هي ويا والمشنقة تاجك

هي ويا والقيد إلك خلخال

هي ويا وموتك عن بلادك عز

هي ويا زينة الرجال

وقد أرخ الشعر الشعبي الأحداث التي تلت ثورة البراق، خاصة عندما أخذت الحكومة البريطانية تتراجع عن موقفها الذي أوضحته في الكتاب الأبيض [1]، والذي صدر في ضوء تقريري لجنة شو، والسير جون سمبسون ١٩٣٠ فلم يكد يمضي شهر على صدور الكتاب الأبيض والذي يحد من الهجرة اليهودية، ويحد كذلك من شراء اليهود للأراضي الفلسطينية والمحافظة على حقوق غير اليهود، لم يكد يمضي شهر حتى وجهت الحكومة البريطانية كتاباً إلى الدكتور وايزمن يخفف من مخاوف اليهود تجاه الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، فاعتبر العرب توجيه هذا الكتاب تراجعاً من الحكومة البريطانية، واطلقوا عليه اسم «الكتاب الأسود»، وجاء في تقرير اللجنة الملكية البريطانية لعام ١٩٣٦م، بهذا الصدد:

«فاستبدال الكتاب الأبيض «بالكتاب الأسود»، كان في رأيهم (العرب) دليلاً واضحاً على النفوذ الذي تستطيع اليهودية العالمية أن تمارسه في لندن، وكل ثقة كانت للعرب في عزم الحكومة البريطانية على عمل ما تُمليه العدالة في ظل مايسمونه دائماً بالانتداب المجحف، تزعزعت كل التزعزع على الأقل»[1].

(١) صدر عام ١٩٢٢، ووضعه تشرشل وزير المستعمرات.

(٢) تاريخ فلسطين ١٩١٤ – ١٩٤٨، د. محمود زايد، ص٦٩، دار القدس ١٩٧٤.

ولم تكد تحل سنة ١٩٣٣ حتى ادرك العرب أن أساس البلاء الذي حل بهم هم الإنجليز، وأن الوطن القومي اليهودي هو وليد السياسة الإنجليزية، وأداة من أدواتها الاستعمارية، لهذا قرروا استهداف الإنجليز واليهود في نضالهم.

ثــورة ١٩٣٦ م:

انطلقت الشرارة الأولى من رجل الغضب الفلسطيني،والتي أدت إلى نشوب الثورة الكبرى، وذلك من حادث فدائي قامت به جماعة على قافلة من السيارات في ١٥ أبريل ١٩٣٦ بالقرب من قرية عنبتا، واطلقوا النار على الركاب فقتل يهودي وجرح آخر، وفي مايو (آيار) ١٩٣٦ اعتقلت الحكومة البريطانية أعضاء اللجنة القومية في طولكرم، وكذلك اعتقل أكرم زعيتر أحد زعماء الحركة الوطنية، فقامت المظاهرات في نابلس، واطلق البريطانيون النار على المتظاهرين فقتلوا أربعة وجرحوا سبعة ولم تكد الأخبار تصل إلى القرى، حتى هرع القرويون بأسلحتهم إلى النجدة، وأخذ الأهالي ينسفون الجسور، ويخربون خطوط السكك الحديدية، ويقومون بتفجيرات يومية في أنابيب البترول بين حيفا والعراق، وفي مرج ابن عامر، وشرقي

الأردن التي كانت تعيش في جوٍّ من الثورة، عدا حوادث اغتيالات ضباط البوليس الذين عرفوا بتنكيلهم بالعرب.

وقد حدا اشتداد الثورة وتنظيمها الحكومة البريطانية على استقدام نجدات عسكرية كبيرة، وأن تعهد بقيادتها إلى أحد كبار قادتها وهو اللفتننت جنرال دل، مدير العمليات والاستخبارات العسكرية، في وزارة الحربية البريطانية، وقد قدرت الحملة التي قادها لإخماد الثورة بعشرين ألف جندي عدا قوات البوليس البريطاني الذين لايقل عددهم عن الجنود.

وبلغت الثورة ذروتها حين أقبلت من العراق نجدة بقيادة فوزي القاوقجي، كما انضم إليها متطوعون من سورية ولبنان والأردن وأصبحت الثورة مرهوبة ومعاركها الحربية امتدت ساحتها لتشمل أراض كثيرة مثل معركة «بلعا، وترشيحا»، واستمر الاضراب ستة أشهر إلاَّ أسبوعاً واحداً لم يعرف التاريخ له مثيلاً، وقد حاول الملوك العرب آنذاك السعي لايقاف هذا الاضراب، ولكن تصريح وزير المستعمرات البريطاني قطع عليهم تفاؤلهم. وقد تميزت هذه الثورة بكونها موجهة للانتداب البريطاني، وبكونها عنيفة شديدة وباستمرارها، وشمولها جميع طبقات الأمة،

من شرق الأردن والعراق ومن سوريا ولبنان الذين اشتركوا عن طريق التطوع، وأمدوا المجاهدين بالعتاد والسلاح، لتصبح قضية فلسطين قضية عربية[1] .

وإضافة إلى معركة «بلعا» و«ترشيحا» كانت هناك معارك في جبع في قضاء جنين، وبيت امرين شمال غربي نابلس، ومعركة الخضر التي استشهد فيها البطل السوري سعيد العاص، ومعركة الدبابات في كفرصور، وقد أرخ الشاعر الشعبي محمود زقوت قصيدة صور فيها هذه الملاحم، وهي تتألف من مقاطع، والمقطع الواحد يضم ثلاث شطرات ذات قافية واحدة، أما الشطرة الأخيرة، فهي ثابتة بحرف النون، واستعرض فيها بطولات الثوار الفلسطينيين ومقارعتهم للإنجليز واليهود دفاعاً عن حقهم في أرضهم ومطالبتهم بالغاء وعد بلفور، كما وحيّا مشاركة الأخوة العرب في المعارك، يقول في قصيدته:

جبل النار يا فوز الدين   يفديك بالمال والبنين
ريح الجنة يا عالم فاح   بمعركة وادي التفاح
استشهد فيها الفلاح   حَط السنجة بالمرتين

---

(١) القضية الفلسطينية، أكرم زعيتر، ص١٠٩، دار الجليل، ط٣، ١٩٨٦م.

وقعة جرزيم وعيبال ... شيبت روس الأطفال
اتخذلت فيها الأنذال ... بفضل القائد فوز الدين
وبتطويقه بيت امرين ... كان فيها الثوار ستين
عينيك يا صلاح الدين ... اشوف شجاعة المجاهدين
انتشر الخبر بجبل النار ... هرعوا الناس اكبار وصغار
بمعركة مثلها ماصار ... تشبه لوقعه حطين
صار ادمّر خصم الميّ ... بمعركة جبع ياخيّ
طوت الأمة الأرض طيّ ... كرّت على الملاعين
أما وقعة وادي دعوق ... تشبه لحرب اليرموك
هذا الموت يا ظالم ذوق ... وهذه رجالك فلسطين
الدبابات في كفر صور ... تكسرت يا اورمسى غور
إن ما ألغيت وعد بلفور ... أخرتكم تبقى مثل الطين
بتطويقه جبل المنطار ... دِلّ عقله منها وطار
مافيها طيار جي طار ... الا استجار بفوز الدين
أعظم معركة في بلعا ... كانت هي يوم الجمعة
استشهدوا فيها سبعة ... قتلاهم مش محصورين
فوزي البطل الشجاع ... أوقف ماله روحه باع
لتخليص هذه البقاع ... من أيدي المستعمرين

من بغداد دار السلام | جاني ماشي على الاقدام
يانصار يا إسلام حيّوا | القائد فوز الدين
بتطويقه نهر البركات | جادوا العرب النجدات
والنِّسا رفعت الرايات | للشبان مزغرتين
قطعوا النهر بالأمان | والخصم شاهد عيان
ترّخ عندك يا زمان | ظلم وغدر الغربيين[1]

وكذلك أرخ الشعر الشعبي لهجوم الثوار على مستعمرة كفار عصيون، بهذه الأبيات:

على كفار عصيون صار المنادي

يومٍ عبوس يوم شرٍّ واستطاره

حسين عمرو بنتخي مثل زيدان

صبيان لعب اليوم عَجٍّ الغبارة

والحاج ناجي بنتخي في أول القوم

يوم عبوس يوم هذا النهار

(١) موسوعة الفلولكور الفلسطيني، مرجع سابق، جزء ٢، ص٧٨٣.

نكبة ١٩٤٨ م

وقعت نكبة عام ١٩٤٨ فكانت ضربة مؤلمة حطت على كاهل الشعب الفلسطيني حيث تناثر هذا الشعب على رقعة واسعة من الأرض العربية يجتر أحزانه، كانت الضربة قوية أفقدت الإنسان الفلسطيني توازنه، واختلطت عليه الأمور، واختفت أمام ناظريه القيم، فأحس بالضياع والغربة، وتملكه اليأس، وكاد يفقد ثقته بنفسه، ولكن عراقة الإنسان الفلسطيني في النضال على مدى عشرات السنين، جعله يتمالك نفسه ويمسك بزمام الأمور، يضمد الجراح، ورغم ذلك فقد كان هناك من ينكأ هذه الجراح، ويحاول تشويه الحقائق ويلغي بتبعة النكبة كلها على الشعب الفلسطيني، ولم يكن ذلك إلا ليزيد من صموده أمام الافتراءات والأراجيف الموجهة ضده وهي وكما يذكر شاعرنا هارون هاشم رشيد[١]، «المخيمات... معسكرات التشريد، مؤامرات التشويه، واشاعات التشكيك، كل هذه كانت المواجهة الأولى للإنسان الفلسطيني الذي اضطر تحت عوامل عدة أن يضرب في مجاهل المنافي عبر دروب الموت والإفناء». ومع النزوح، برزت عدة مشكلات، تركت آثارها على الإنسان الفلسطيني، فقد برزت مشكلة اللاجئين

---

(١) الشعر المقاتل في الأرض المحتلة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص٢٦ .

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فكان التشرد والبطالة والفقر، فعمَّ الحزن والألم، مما ترك أثراً عميقاً على تحرك الإنسان الفلسطيني، ثم تسلمت وكالة الغوث الدولية شئون الفلسطينيين، وادعت لنفسها الفضل في تأمين المخيمات مع توفير حد أدنى من ظروف المعيشة لبعضهم ووصمتهم بصفة «لاجيء».

والشاعر محمود درويش عندما كان صغيراً في سني النكبة الأولى عاد إلى فلسطين وكما يقول: «العودة تعني بالنسبة لي نهاية الجبنة الصفراء، نهاية تحرشات الأولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة «لاجيء» المهينة..»[(١)].

ولم يكن الفلسطيني في الأرض المحتلة أحسن حالاً من النازحين، بل كان يعيش في وطنه غريباً، يعاني الكثير من التفرقة والتفاوت في المعاملة والحقوق، فلم يكن الفلسطيني في أحسن حالاته سوى مستخدم أو فلاح في جزء من أرضه والجزء الآخر استولت عليه الدولة بحجج وأسباب كثيرة، ويندر أن نجد إنساناً فلسطينياً نال حقوقه أو بعضاً منها.

---

(١) شيء عن الوطن، محمود درويش، دار العودة، بيروت ١٩٧١، ص٢١٤.

وقد خضع المثقف الفلسطيني داخل الأرض المحتلة لظروف قاسية، بحيث تحسب عليه خطواته وكلماته، إلى جانب حرمانه من الاطلاع على الثقافة العربية بسبب الحصار الذي تفرضه السلطة اليهودية على البرامج العربية التربوية والتثقيفية في المدارس وخارجها. بينما المثقف الفلسطيني خارج الأرض المحتلة تيسرت له الثقافة العربية[1] .

وإزاء هذا الجو المحموم الذي يعيش فيه ادباؤنا وشعراؤنا فإنهم كانوا يزدادوا صلابة وعناداً، وتشتد صلتهم بالجماهير، وهذا ما عبّر عنه توفيق زياد بقوله: «إن أكبر الفنانين والشعراء ورجال الفكر الذين قدّموا إنتاجاً خالداً كان سرهم الأساسي؛ ارتباطهم بجماهير الشعب والنظر إلى تجربتهم الذاتية، كجزء عضوي من التجربة العامة، وفي استطاعتهم التعبير بانسجام عن ظروف عمل وحياة وكفاح الناس المحيطين بهم. هذه الصلة كانت دائماً (القصبة الهوائية)، التي كانوا يتنفسون منها»[2] .

---

(١) الشخصية الفلسطينية ، في الشعر الفلسطيني - د. واصف أبو الشباب، دار العودة بيروت، الطبعة الأولى، ص٤٠ .

(١) عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني - توفيق زياد - دار العودة، بيروت ١٩٧٠، ص٢٢ .

والشاعر محمود درويش يوضح الصلة القوية بين الشاعر وجماهيره، وتشبث العربي بأرضه ووطنه خوفا من الاقتلاع والضياع بقوله: «إن أهمية شعرنا الموضوعية تكمن في التحام هذا الشعر بكل ذرة من تراب أرضنا الغالية، بصخورها ووديانها، وجبالها واطلالها، وإنسانها الذي يظل مرفوع الرأس رغم ما ينوء به كتفاه من أعباء، وما يشد يديه وإرادته من قيود، إنسانها الذي قاوم ولايزال يقاوم الظلم والاضطهاد ومحاولات طمس الكيان والكرامة القومية والإنسانية، كأني به يقول: اللهم لا أسألك حملاً خفيفاً، بل أسألك ظهراً قوياً. ثقيلة هي الأحمال وقوية هي الظهور، هذا الإنسان الذي يحمل بطولة الجبل ورقة العشب، قسوة الماضي والحاضر وجمال الغد، عطش الصحراء وخصب الربيع، يبذل التضحيات غير خاضع إلاّ لأمر واحد هو حاجته إلى الحرية»[1] .

لقد كان عرب فلسطين المحتلة يدركون منذ البدء خطورة المعركة التي يخوضونها تحت سياط الحكم العسكري الإسرائيلي، ومنذ البدء عبروا عن وعيهم بالمخطط الموضوع ضدهم باختصار ولكن بعمق، فهي

---

(١) شيء عن الوطن - محمود درويش - دار العودة - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١، ص٣٢ .

حملة موجزة تلخص كل شيء «كل الناس في العالم يقفون على أقدامهم، إلاَّ الحاكم العسكري فإنه يقف على أذنابه»، ولم يكن هذا التعبير ليغطي التحدي السياسي الذي كان يواجهه عرب فلسطين المحتلة، بل كان يغطي أيضاً التحدي الثقافي المبيت ضدهم، وأدى وعيهم هذا لحقيقة «التسلل من الداخل» لتسهيل عملية «الضرب من الخارج»، إلى بلورة أدب المقاومة الذي كان بدوره «أيضاً» صموداً من الداخل «لتسهيل عملية» الضرب إلى الخارج»[1] .

ويقول منصور كردوش، أحد أبرز العناصر الوطنية في الأرض المحتلة: «الفن والثقافة سلاحان. إذا ما سارا على النهج الهادف رفعا من مفاهيم أمة بكاملها، أما الفن والثقافة المجردان فباعتقادي انهما من مفاهيم عصور الاقطاع والبذخ والرفاهية السطحية. ولذلك أرى أن الواجب القومي والاجتماعي والتاريخي لكل من حمل القلم والفرشاة، أن يعمل في الاتجاه الهادف كي يكون صاحب رسالة سامية»[2] .

---

(١) الأدب الفلسطيني المقاوم - غسان كنفاني - مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣ .

والشعر الفلسطيني سار مع الإنسان الفلسطيني جنباً إلى جنب بعد النكبة، معبراً عن الظروف التي عاشها ومرَّ بها، فها هو الشاعر معين بسيسو يصيح من الأعماق ليسجل ما رآه في معسكرات الفقر والمهانة، وما احاط ببني قومه من بؤس وشقاء أثناء نزوحهم:

لم يترك السيل غير الحبل والوتد

من ذلك الشعب أو من ذلك البلد

وغير بعض العرايا السابحين على

تلك الوحول بقاياهم من الولد

وغير ما شاهدت عيناك من جثث

منفوخة لم تزل مجهولة العدد

هنا حطام هنا موت هنا غرق

هنا بقايا رغيف عالق بيد

هنا العيون التي تصطك ميتة

هنا الشفاه التي تدعو لثأر غد

تلك البقية من شعبي ومن بلدي

ما بين باكٍ ومجنون ومرتعد[1]

وفي قصيدة «المعركة» يوضح الشاعر بأنه لا سبيل لاستعادة الحق إلا بالثورة الكبرى، لأنها الطريق الوحيد لكنس الأرض من المحتل[2]:

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

واحمل سلاحي لايخفك دمي يسيل من السلاح

وانظر إلى شفتي أطبقتا على هوج الرياح

وأنظر إلى عيني أغمضتا على نور الصباح

أنا لم أمت! أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

فاحمل سلاحك يا رفيقي واتجه نحو القتال

واقرع طبولك يستجب لك كل شعبك للقتال

وارعد بصوتك يا عبيد الأرض هبوا للنضال

---

(١) ديوان المعركة - معين بسيسو - دار الفن - يناير ١٩٥٢ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة / معين بسيسو - الطبعة الأولى، دار العودة - بيروت ١٩٧٩م، ص٥١، ٥٢.

يا أيها الموتى أفيقوا: إن عهد الموت زال

ولتحملوا البركان تقذفه لنا حُمرُ الجبال

هذا هو اليوم الذي قد حددته لنا الحياة

للثورة الكبرى على الغيلان أعداء الحياة

فإذا سقطنا يا رفيقي في جحيم المعركة

فانظر تجد علماً يرفرف فوق نار المعركة

مازال يحمله رفاقك يارفيق المعركة

❖❖ أما هارون هاشم رشيد؛ فقد أهدى أولى قصائده «مع الغرباء» إلى اللاجئين، يقول: «معسكر البريج هو أكبر معسكر للاجئين في قطاع غزة، فإليهم جميعاً وإلى جميع لاجئي فلسطين أهدي هذه العبرات»، وقد جاءت القصيدة على شكل حوار بين لاجئة ووالدها:

لماذا...؟

نحن يا أبتي...؟

لماذا نحن أغراب..؟

أليس لنا بهذا الكون أصحاب وأحباب؟

أليس لنا أخِّلاء

أليس لنا أحبّاء

لماذا...؟

نحن يا أبتي..

لماذا نحن أغراب؟

أبي

قللي بحقّ اللّه

هل نأتي إلى يافا؟

فإن خيالها المحبوب في عيني قد طافا

أندخلها أعزاء

برغم الدهر... أشرافا؟

فيجيب أبوها على تساؤلاتها:

سنرجع ذلك الوطنا

فلن نرضى له بدلا

ولن نرضى له ثمنا

ولن يقتلنا جوعٌ

ولن يرهقنا فقر

لنا أمل سيدفعنا

إذا ما لوّحَ الثأر

فصبراً.. يا ابنتي.. صبراً

غداة غدٍ لنا النصر

وقد رددت جموع اللاجئين هذه الأغنية «إننا لعائدون»[١] فأنشدوها مع الشاعر من خلال لحن جميل انطلق من إذاعة صوت العرب من القاهرة :

عائدون عائدون إننا لعائدون

فالحدودُ لن تكونَ والقلاعُ والحصونَ

فاصرخوا يا نازحونَ

إننا لعائدونَ

عائدونَ للديار للسهول للجبال

تحت اعلام الفخار والجهاد والنضال

(١) مع الغرباء - دار العودة، الطبعة الأولى ١٩٨١، ص١٧٥ .

بـالـدمـاء والـفـداء والاخـاء والـوفـاء
إنـنـا لـعـائـدونَ

عـائـدون يـا رُبـى عـائـدونَ يـا هـضـاب
عـائـدون لـلـصـبـا عـائـدون لـلـشـبـاب
لـلـجـهـادِ فـي الـنـجـاد والـحـصـاد فـي الـبـلاد
إنـنـا لـعـائـدونَ

يـا فـلـسـطـنُ دعـا هـاتـفٌ إلـى الـسـلاح
فـحـمـلـنـا الـمـدفـعـا وتـنـسَّـمْـنـا الـريـاح
لـلأمـام لـلأمـام بـالـحـسـام والـحـمـام
إنـنـا لـعـائـدونَ

وهناك نشيد ثانٍ يؤكد على عزم وإصرار هذا اللاجيء على استرداد وطنه الذي ترعرع فيه، فإنه سيعيد له العزة والسيادة[1] وهو نشيد :

(١) مع الغرباء - دار العودة، الطبعة الأولى ١٩٨١، ص١٧٥ .

أنـا لـن أعيـش مشرَّدا
أنـا لـن أظـل مقـيدا

أنـا لـي غـدٌّ.. وغـدا
سأزحف ثائراً متمرِّدا

انا لن اخافُ من العواصف
وهـي تجتاح المدى

ومـن الاعاصير التي
ترمي دماراً اسودا

ومـن القنابل والمدافع
والخناجر.. والمُدى

أنـا صاحبُ الحق الكبير
وصانعٌ منه الغدا

أنـا ثورةٌ كبرى.. تزمجرُ
بالعواصف.. والرَّدى

أنا «لاجيءٌ»..وطني استبيح
وداسَهُ غدر العِدى

أنـا نـازحٌ داري هناك
وكرمتي... والمنتَدى

وطفولتي.. درجَتْ على
ارض البطولةِ والندى

وصباي.. كم نهلَ المنى
فوقَ الروابي.. واغتدى

وشبابي.. المشبوبُ كم
حملَ الكفاحَ.. وكم شدا

وبطولتي.. نبتَتْ هناك
وأينَعتْ تحتَ الندى

بين الصخور
معَ.. النسور مع الهدى

صرخاتُ شعبي لن تضيعَ
ولن تموتَ.. مع الصَّدى

ستظلُّ لسعاً كالسياط
على ظهور من اعتدى

ستظل في اجفانهم ابداً
لهيباً.. مُرعِدا

وطني هناك.. ولن أظلَّ بـغـيـره.. مـتـشـردا
سـأعـيـدهُ.. واعـيـدهُ وطـنـاً عـزيـزاً سـيِّدا
سـأزلـزلُ الـدنـيـا غـدا واسـيـرُ جـيـشـاً واحـدا
لـي مـوعـدٌ.. فـي موطني هيهاتَ.. انسى الموعدا

صرخة لاجيء

وعندما انطلقت الثورة الفلسطينية المسلحة في الفاتح من كانون الثاني عام ١٩٦٥، فقد رافقت الأناشيد الوطنية نمو الثورة، وواكبت أحداثها، وباركت بطولاتها ومجدت تصميماتها، وأكدت العزم على المضي في الثورة التي كانت استجابة لطبيعة حركة الحياة، انطلقت لتعبر عن حياتنا، موظفة كل إمكانات شعبنا وقدراته، في سبيل القضية المركزية «تحرير الوطن»، وهكذا نشطت مؤسسات الثورة الفلسطينية حسب اختصاصاتها، معبرة عن فاعلية شعبنا وأصالته، فكانت الأناشيد إحدى وسائل التعبير عن القضية، وهذه ثلاثة أناشيد حملت عناوين[١] :

---

(١) أنظر أناشيد الثورة الفلسطينية، حركة التحرير الفلسطيني، «فتح»، بدون تاريخ.

(١) العاصفة

باسم الله باسم الفتح   باسم الثورة الشعبية
باسم الدم باسم الجرح   اللي بينزف حريّة
باسمك باسمك يا فلسطين   أعلناها للملايين

عاصفة... عاصفة... عاصفة

يا مغاوير الكرامة   مرحبا
يا جبال النار يا ثورة   مرحبا
فتح مرت من هنا   مرحبا
ومن هنا ومن هنا   ومن هنا
تزرع الأرض بكمائن   من هنا
عاصفة في كل دار   عاصفة اصرار ونار

عاصفة... عاصفة... عاصفة

(٢) بلادي

بلادي بلادي بلادي   فتح ثورة على الاعادي
فلسطين يا أرض الجدود   إليك لابد أن أعود
فتح ثورة ستسود   والعاصفة أمل بلادي

فلسطين يا حبي الكبير ... أنت غايتي والمصير
إليك لابدَّ أسير ... يصفعُ الظلمَ عنادي
فلسطين يا مهد المسيح ... مسرى محمّد يصيح
حرروا بلدي الجريح ... طهروه من الأعادي
فلسطين يا أملي الوحيد ... إليك لابد نعيد
عزة الشعب الطريد ... تحت رايات الجهاد

(٣) طريق العزة

أنا قد كسرت القيد قيد مذلتي
وسحقت جلادي وصانع نكبتي
ونسفت سجني وانطلقت عواصفا
لهبا ادمدم تحت راية ثورتي
أنا ابن فتح ماهتفت لغيرها
ولجيشها المقدام صانع عودتي
فهي التي صنعت لشعبي ثورة
وهي التي شقت طريق العودة

حـــرب ١٩٦٧ :

حققت إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧، انتصاراً عسكرياً مذهلاً، وظهرت العسكرية الإسرائيلية كقوة منظمة ديناميكية قادرة على خوض الحرب الحديثة بكل تعقيداتها التكتيكية والإدارية والتكنولوجية، وتشكلت لدى الصهاينة قناعة راسخة بقدرة قواتهم المسلحة على قهر الدول العربية مجتمعة، والسيطرة على الأراضي العربية المحتلة خارج حدود اتفاقيات هدنة رودس ١٩٤٩، وإعادة الاستقرار إلى المنطقة بقوة الردع العسكري والعمل تحت مظلة هذا الردع لتهويد المناطق المحتلة وتدجينها وضمها على مراحل متعاقبة(١) .

ولقد واكب الأدب هذا الجرح العميق وحاول أن يضمده، ويعيد الثقة في قوة الساعد العربي، ولكنه لم يستطع أن ينسى أن القدس قد وقعت فريسة للعدوان فأخذ ينافح عنها بالكلمات في انتظار الأفعال، فماذا يقول نزار قباني للقدس السليبة:

بكيت حتى انتهت الدموع

---

(١) اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء، المقدم الهيثم الأيوبي، الطبعة الأولى ١٩٧٥، المؤسسة العربية للدراسات - بيروت ص١٤ .

صليت.. حتى ذابت الشموع

ركعت.. حتى ملّني الركوع

سألت عن محمد فيك، وعن يسوع

ياقدس، يامدينة تفوح أنبياء

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء

يا قدس يا مدينة الاحزان

يادمعة كبيرة تجول في الأجفان

من يوقف العدوان

عليك يا لؤلؤة الأديان!

يا قدس.. يا مدينتي

يا قدس يا حبيبتي

غداً.. غداً.. سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والزيتون

وتضحك العيون..

وترجع الحمائم المهاجرة

إلى السقوف الطاهرة

ويرجع الأطفال يلعبون

ويلتقي الآباء والبنون

على رباك الزاهرة..

يا بلدي..

يا بلد السلام والزيتون...

وكان لإذاعة صوت فلسطين، والتي تبث من القاهرة دور كبير في إحياء ما يسمّى بالفولكلور الغنائي المقاوم، فقد أثرى الكتاب هذه الإذاعة بكلمات تعبر بصدق عن طبيعة المرحلة بعد أن وجد شعبنا داخل الضفة الغربية وقطاع غزة نفسه، وقد أصبح محتلاً من الإسرائيليين، بعد أن كان يمنّي نفسه الأمانيّ بالعودة إلى أرضه.

وطبيعة المرحلة التي يجتازها شعبنا، وهي مرحلة القتال من أجل التحرير، تجعل الدارس ينظر لشعبية النص الفولكلوري بمنظار غير حِرَفي، ذلك لأن الأغاني تجسد الوجدان الشعبي.. وان أغاني الثورة الفلسطينية سواء منها ما شاع بين صفوف الأشبال الثورية المقاتلة، أو ما اذيع منها عبر راديو الثورة الفلسطينية تجسد آمال وتطلعات شعب فلسطين لذا فقد تلقفتها الجماهير وتداولتها لتصبح

جزءاً من ثقافة الجماعة الشعبية. ومن هذه الأغاني:

طـــل سـلاحـــي [1]

طل سلاحي من جراحي ... يـا ثـورتـنـا طـل سلاحي
ولايـمـكـن قـوة فـي الدنيا ... تـنـزع مـن ايـدي سلاحي

طـــــل ســــلاحـــي

دربـــي مـــر.. دربـــك مر ... ادعس فوق ضلوعي ومر
قديش هادا الشعب الثائر ... ضحي وقدم تايعيش حر

طـــــل ســــلاحـــي

اللي بدمه يجود ما يهمه ... لوسال دمه وغطى الأرض
طــــول مـــا ســــلاح ... يــبــقـــى وجـــــودي
الـــثـــورة فـــي ايـــدي ... مـــفـــروضـــ فـــرضـ

طـــــل ســــلاحـــي

ومنـــها :

طالع لـك يا عـدوي طالع ... من كل بيت وحاره وشارع
حـربـنـا حــرب الـشـوارع ... طـاع لـك يا عـدوي طالع

(١) أناشيد الثورة الفلسطينية (مرجع سابق)، ص١٢٧ .

وقد كان من نتيجة حرب ٦٧ الهجرة الثانية إلى الأردن حيث نبتت مخيمات جديدة، وبالتالي مآسي جديدة، وابتعاد الشعب عن الوطن وانتشاره في الشتات بانتظار ظروف أشد قسوة، ومنافسات تتحدى وجوده وبقاءه.

وعلى ذلك فإنه يصعب على الباحث أن يغطي النصوص الفولكلورية التي تعكس روح المقاومة، الآمال، والآلام، وبالتالي، ان يمنحها صفة الشمولية والعمومية من حيث أنها تمثل وجدان الجماعات الفلسطينية. فما يمكن أن تقوله جماعة في مخيم الراشدية في لبنان يختلف عما يمكن أن يصدر عن جماعة فلسطينية في مخيم المغازي في غزة، أو عين السلطان أو في مخيم الوحدات في عمّان، وذلك عائد لطبيعة المعاناة اليومية التي يعانيها السكان.

ومن خلال أغاني المرأة الفلسطينية في المناسبات الوطنية، انطلق صوتها يحيي طلائع الثورة، وعندما بدأ الناس في الوسط الشعبي الفلسطيني يسمعون أن هناك تنظيمات فدائية فلسطينية ترفض وقف إطلاق النار وتغير على إسرائيل، ثم بدأوا يشاهدون في بعض شوارع القرى والمدن العربية، الشبان الفلسطينيين يرتدون الملابس المبرقعة، ويتلثمون بحطات بيضاء مخططة بالسوداء،

ويحملون أسلحة جديدة ذات مخزن معقوفة تعرف بالكلاشنكوف، لم يعتد الإنسان العادي رؤيتها من قبل، وأن هؤلاء الشبان يعرفون بالفدائيين، فكان مجرد رؤيتهم في الشارع يجسد تطلع كل اللاجئين إلى أرضهم المحتلة، وقد دفع هذا المنظر المرأة في الوسط الشعبي المحافظ، للخروج عن التقليد والتصريح بحبها للفدائي من خلال هذا النص الغنائي النسوي:(١)

هالفدائي ياما احلاه

دخلك يما اعطيني اياه

في ايدي بارودة

وفي ايده بارودة

وع الحدود أنا وياه

في إيدي مدقّة

وفي ايده مـدقة

وع الحدود أنا وياه

---

(١) الموسوعة الفلسطينية، (مرجع سابق) جزء ٣، ص٧٩٦.

وكذلك تتحدث بافتخار وسعادة عن الفدائي الذي ينتقل عبر الأراضي العربية مظهرة سعادة الشعب بطلائعه المقاتلة التي أخذت تبرز وتنمو وتثبت وجودها على الساحة العربية تقول كلمات الأغنية:

بالقناني يازارعات الورد بالقناني فتّح وماشاء الله[1]
ع لبنان سافر الفدائي ع لبنان الله معه الله
بالجكيت يازارعات الورد بالجكيت فتّح وماشاء الله
ع الكويت سافر الفدائي في الكويت الله معه الله
في القوّاره يازارعات الورد في القوّارة فتح وما شاء الله
ع حواره سافر الفدائي ع حواره الله معه الله

وكذلك أغنية «بلدي»:

بلدي يا بلدي وأنا عايز اروح بلدي
يا عزيز عيني وأنا عايز أروح بلدي
بدي فلسطين، الحرب فيها بسكاكين
بهمة الفدائيين أنا عاوز أروح بلدي

(١) المرجع السابق، ص٨٠٩ .

بلدي بلد أمجاد إلى فيها ثلث أولاد

واحد شهيد وواحد استشهد وواحد فدائي

بلدي دير ياسين، الحرب فيها بسكاكين

استعدوا يالاجئين للعودة لبلدي

ولم ينس كاتب كلمات الأغاني أن يشدوا باسم الرشاش «الكلاشينكوف» في مجمل نشيده، وكأن هذا الأداة هي جزء منه، وهي مكملة لشخصيته النضالية، فهي إما بيده وإما تبيت بجانبه، وفي هذا يقول:

بإيدي رشاشي فرشتي ولحافي

وأرضنا المحتلة ما بترجع بلاشي

رشاشي في أيدي أخوي وصديقي

وبدي أظلي ماشي بدي أظلي ماشي

وأغنية أخرى:

والله لانزل دورية واقطع من غرب الميه

واهجم ع الصهيونية واذبحهم ذبح الجديان

والله لاحمل ديكتريوف وقلوبنا ما تحمل خوف

تحت حماية جرينوف ما بنهاب الطيارة
ولا بنخاف الغارة وان متنا مش خسارة

هذه ثورة شعبية

والله لاضرب صواريخ واخلي العدو يصيح
والكل منا صريح أبطال فتح الثورية

ومن الأناشيد التي خرجت من الجرح الفلسطيني وشدت بها جماهير شعبنا نشيد «هذا هو دربي» ليعبر عن صوت الثورة ويشدد على النضال المرير المثابر حتى النصر:

هذا هو دربي هذا هو دربي
لنقاتل يا شعبي لنقاتل ولنطلق كل النار
من جرحي فليقفز سيف بتار من جرحي
من عيني فلتشهد فوهة مدفع من عيني
ولتشحذ ياجرح الشعب السكين على عنق الجزار
ولتطلق أعين شعبي النار
هذا هو دربي لنقاتل يا شعبي

قطرات دمي خيط في الراية يا وطني

وبسيف الجراح البتار

لنقاتل يا شعبي

لنقاتل ولنطلق كل النار

هذا هـو دربـــــي

وفي معركة الكرامة استعاد المقاتل العربي شيئاً من كبريائه وعزته ووحدته، بانتصاره على العدو الصهيوني، حيث لقنته درساً يعد الأول من نوعه في ذلك الوقت، حيث سجل بطولات فدائية سطرها في هذا النشيد:

وحدنا الدم يا كرامة	وحدنا الدم
والشمل التم يا كرامة	والشمل التم
في جبال النار	فدائية
بين الأغوار	فدائية
عاجبين الأرض العربية	وحدنا الدم
لحرب التحرير الشعبية	وحدنا الدم

غلابة يا فتح يا ثورتنا	غلابة
غلابة الإيد اللي تفجر	دبابة
فوق أرض النار يا كرامة	وحدة ثوار
والإيد في الإيد يا كرامة	شعلة إصرار
وحدة ثوار	فدائية
شعلة إصرار	فدائية
عاجبين الأرض العربية	وحدنا الدم

وقد خاطبت الأغنية جماهيرنا في الأرض المحتلة، تحثهم على الصمود والثورة ضد المغتصب، وعدم المساومة أو التفريط في حبة رمل واحدة، فوجهوا إليهم النشيد:

يا جماهير الأرض المحتلة

ثوري ثوري يا جماهير الأرض المحتلة

ثورتنا انطلقت قيدي من دمك الشعلة

لا.. إرهاب ولا معتقلات بتضعف عزيمتنا

دمنا وكفاحنا بتقيده وتقوي ثورتنا

ياالله يا جماهير الثورة ع العدو يا لله

يا ام الشهيد وقدمتي للثورة ولادك

احنا ولادك يا يما واحنا رجالك

بالدم الغالي نحررها وحياك الله

حرب التحرير ياجماهيرنا طويلة ومّرة

باسم فلسطين ثورتنا مستمرة

لابنسالم لا لا ولابنساوم لالا

لابنسالم ولا بنساوم على حبّة رملة

ألوان التعبير الفولكلوري الفلسطيني

الموسيقى... تناغم الإنسان والبيئة

تشكل الموسيقى ركناً هاماً من الحضارة، فلاتوجد حضارة أو تاريخ بدون موسيقى، لأنها المرآة التي تعكس وعلى مر السنين تاريخ الحضارات الإنسانية في شتى بقاع العالم.

فالجنسية أو بطاقة الهوية لا تكفي لخلق شعب من العدم، وإنما توجد الشعوب ويعترف بها عندما تكون لها ركيزة من التراث الحضاري الذي يعتمد على الفنون بشكل عام، وتمتد جذوره لقرون عديدة عبر تاريخ البشرية الطويل، ولها في الوقت نفسه الارتباط الكامل بالأرض التي تردد على تراثها.

فالعرب كان لهم دور هام في ايجاد النظريات الموسيقية العربية والتي تعد من أهم العلوم القديمة، ولذلك

فإن كافة آلات الاوركسترا الحديثة يمكن تقصي تاريخها إلى أصول عربية، وإن اسماء كثير من الآلات الموسيقية الغربية أصلها عربي (قيثارة: Guitar، ربابة Rebec، عود Lute، نقارة: Naker.. إلخ).

ولقد كان الوطن موضع الهام للشعراء وللموسيقيين ولأصحاب المهن الفنية الأخرى، فتغنوا به وانشدوا في حبه روائع القصائد والألحان:

بلاد العرب أوطاني

من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن

إلى مصر فتطوان

فلا أحد يفرقنا

لنا دِينٌ يوحدنا

لسان الضاد يجمعنا

بقحطان وعدنان

وهذا النشيد أيضاً للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان، وقد قام الأخوان فليفل بتلحينه، وهو بعنوان «موطني»[1]:

الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك

والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالماً منعماً وغانماً مكرماً

هل أراك في علاك قاهراً عداك

تبلغ السماء

الشباب لن يكلَّ همُّه أن تستقلَّ أو يبيدْ

نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيدْ

لا نريدْ

ذلّنا المؤبدا وعيشنا المنكدا

لا نريدْ بل نعيد

مجدنَا التليد

موطني

(١) ديوان إبراهيم طوقان، صفحة ٢٠٢، دار القدس ١٩٧٥.

الحسامُ واليراعُ لا الكلامُ والنزاع رمزنا
مجدنا وعهدنا وواجب إلى الوفا يهزُّنا
عِـزُّنَـا
غايةٌ تشرّفُ وراية ترفرفُ
يا هَناك في علاكٌ
قاهـراً عِداكٌ
مـوطـــني

الغناء الشعبي الفلسطيني

عرف عن الشعب العربي حبه للموسيقى، لذا عرف الحداء منذ قديم الزمان، أثناء ترحاله مع إبله، أو أثناء عمله في الحقل، يدندن بجمل لحنية تساعده وتعينه على العمل ومشقته؛ فالموسيقى؛ وكما قال بيتهوفن لغة القلب والروح، وهما المركز الذي تتولد فيه عواطفنا، تلك العواطف التي تجيش بالاستماع إلى الموسيقى فإن كانت حزينة، زادتها الموسيقى حزناً، وإن كانت فَرِحة زادتها فرحاً، ويتفاوت الناس بلغة تخاطبهم مع الموسيقى، وذلك حسب

احساساتهم الفطرية وقوّة تخيلاتهم وخصبها، فهنالك من تتأثر عواطفهم تأثراً، يفصح عن تفاعل حقيقي بينهم وبين الموسيقى، ينسجمون في خيال جميل ينسون خلاله أنهم يستمعون إلى الموسيقى، وهناك من يتطلبون مساعدة تشخيص معاني تلك الموسيقى، وما تؤديه من تعبيرات، فالموسيقى كغيرها من الفنون الجميلة لغة وفن وعلم.

فهي تعتبر لغة لأنها تحوي لهجات كثيرة واصطلاحات وافرة، ولها حروف هجائية تتركب منها كلمات وجمل، وموضوعات موسيقية تمكّن من تيقنها من إنشاء قطع موسيقية جميلة تعبر عما يكنه صدره من عواطف وشعور، فالملحن كالمؤلف والمغني كالممثل. وهي أيضاً تصف حوادث مختلفة من حلم مزعج مثلاً، إلى تخيل طفل أو غضب الطبيعة، وما إلى ذلك، هي تعبر عن العواطف والخلجات النفسية.

وكذلك هي لغة لها تاريخ كتاريخ سائر اللغات، يسجل مراحل تطورها، ويزيح الستار عن غامض سرّها، ويرافق الأمم في تقدمها أو انحطاطها.

وكذلك فإن الموسيقى فنٌّ، لأن قانونها الجمال، ونظامها الإنسجام، ولأن لنغماتها من الأصوات التوافقية ما

يخلق منها ـ إذا رتبت ترتيباً منسجماً - خيوطاً ذهبية لامعة تحيط بإطار الطبيعة فتزيدها فتنة[١] .

والأغاني الشعبية الفلسطينية ضاربة بجذورها في عمق المكان، وهي شهادة على العلاقة الوثيقة بين الإنسان والمكان وخصوصياته التاريخية والديمغرافية منذ أن استوطنت أرض فلسطين من قبل الجنس البشري، وبداية تشكيلها الحضاري كدولة كنعانية.

وبالنظر إلى جذور الغناء والموسيقى والرقص في فلسطين بشقيها الشعبي والمحترف، فإن الوجود الشعبي لهذا النمط الثقافي لايمكن فصله عن مثيله في دول بلاد الشام، فهو يندرج تحت تسمية الفلكلور المشرقي العربي، أما بالنسبة للموسيقى المحترفة في فلسطين فهي نتاج لبدايات متواضعة تشكلت مع بدايات القرن العشرين وتحديداً في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات، أي قبل حلول النكبة، وامتزج هذا النمط الموسيقي المحترف بمزاوجة بين اللون البدوي والمشرقي واللون الطربي المصري، ونظراً للطبيعة الجغرافية لأرض فلسطين شكل النمط الموسيقي المحترف جسراً ثقافياً بين هذين اللونين.

---

(١) يُسري جوهرية عرنيطة، الفنون الشعبية في فلسطين - الطبعة الثالثة ١٩٨٨، وزارة الثقافة الفلسطينية ص٢٣.

إلا أن الموسيقى الشعبية الفلسطينية هي الوعاء الثقافي الخصب، ورغم المساحة الجغرافية الصغيرة نسبياً لفلسطين، فإن التباين الثقافي ملاحظ بين الأقاليم، وحمل هذا التباين زخماً ثقافياً، ويُشكل الغناء والموسيقى والرقص مفردات فنية تكاد تكون مذابة في بوتقة واحدة(١) .

والأغنية الشعبية قصيدة غنائية يتداولها الناس في الوسط الشعبي، ويتوارثونها، وهي مجهولة النشأة، وهي تكرس المفاهيم والقيم الدينية والبطولات من خلال التحدث عن سير الأبطال والمجاهدين، يصيغونها داخل أطر أو قوالب لحنية كثيرة الشيوع مثل: العتابا، الدلعونا، الهجيني، السامر.. إلخ، وقد يرتبط اسم القالب بمنطقة دون أخرى، ومن هذه القوالب(٢) :

الترويدة :

وهي اسم لمجموعة قوالب لحنية تشترك في صفة حملها لمضمون الوداع أو التسرية عن النفس، وتسمع في

---

(١) أشرف الشكعة، الغناء الشعبي الفلسطيني، ملحق جريدة البيان الثقافي ٢٩/١٠/٢٠٠٠م.

(٢) نمر سرحان: موسوعة الفلكلور الفلسطيني، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الأردن ١٩٨٩

المناسبات مثل: وداع العريس، الترويد للجمال المسافرة، أوحارسات الكروم.

مـن التــرويــد :

طوعني معك　　　يا رايـح مطـوع

طوعني معك

ماني مودعك　　　مالي قليب يودع

ماني مودعك

الحـدادي :

وهومن الغناء المرتجل في المناسبات الوطنية والاجتماعية أو في الترحال، ومنه:

حياكم　　الله　　ومرحبا

حيّا　　الرجال　　الثائرين

يـا حـلالـي ويامـالـي

من شعبنا رمز الإباء

ومن ثورته ع الغاصبين

يلّلي سمعتوا الندا

من صوتنا الحر الأمين

جينا على اسم الهدى

نعطي الجماهير اليقين

بشمالنا غصن الزيتون

والبندقية باليمين

والحق غيره ما يكون

وياهلا بالمنصفين

جينا نؤكد عهدنا

عهد الأُباه السابقين

تتحرك يا بلادنا

ونعود بالنصر المبين

الدلعونا :

وهذا القالب اللحني مرتبط «بالدبكة»، فهو يؤدى في حلقة الدبكة مع عزف الشِّبَّابه أو اليرغول، ورقصة الدبكة هي حركات نشيطة بالأرجل متفاوتة في توقيتها وفقاً لايقاع الموسيقى والغناء المصاحب تتخللها ضربات الايقاع المرافق للدبكة. ويقف عادة في مقدمة حلقة الشبان «اللويح»، أو القائد الذي يضبط الاحتدام الايقاعي للدبكة، وهناك عدة أنواع من الدبكة مثل: الشماليّة، والطيّارة، والغزالة، والكردية، والشعراوية،. والسحجة، وتأتي هذه التسميات للاختلاف البسيط في التفاصيل الخاصة بالنموذج العام. ويغني عادة إلى جانب الدبكة طلعة «الدلعونا»، أو«جفرة»، أو «ظريف الطول». ومن الدلعونا :

أنا لعملك سحر واحطه بصدري

من خوف العالم باصُّحْبَه تدري

آية من «عمَّ» وآية من «الفجر»

وبالسَّحر المانع مايفهمونا

ريـدهـا والسـامـر:

وهي من القوالب المنتشرة في فلسطين خاصة في الجنوب الغربي من فلسطين، وفي منطقة القدس، وهي مرتبطة بالقالب اللحني «السامر» الذي انتشر في جنوب ووسط فلسطين.

وظيفة الأغنية الشعبية

الأغنية الشعبية؛ هي لون من ألوان الترويح عن النفس والتطريب، مثلما الدبكات الشعبية، أو الألعاب البهلوانية، فتعطي انطباعاً بالبهجة، لذا يلجأ إليها الإنسان للهروب من عناء العمل ومشاق المهنة، خاصة إذا كانت في مجال الأعمال اليدوية، كالعمل في الزراعة أو عند قطف الثمار، أو في مجالات الإعمار أو الصناعة، لذا نجد أن هذا الإنسان يدندن بألحان يجد فيها ملجأ لقتلِ الوقت وتسلية النفس، مقتنعاً بجمال صوته ولو كان جشاً، ولايداريه إلا إذا أخذ على حين غرّة من أحدهم!

ونستطيع أن نجمل وظائف الأغنية الشعبية بثلاث: «الوظيفة - العقديَّة أو العقائدية، الوظيفة النفسية، والوظيفة الاجتماعية):

الوظيفة العقائدية :

وقد تجلت هذه الوظيفة في كثير من أبيات القصائد الغنائية، ففلسطين هي مهد الديانات السماوية، وبالتالي، انعكس ذلك على طبيعة المجتمع الإيمانية سواء في أقواله أو أفعاله، فكان للأغنية نصيب كذلك من هذه الإيمانات متمثلة في الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى - راجين منه أن يلبي حاجاتها وأن يحقق آمالها ورغباتها، وكذلك تحدثت عن بعض الرسل عليهم السلام لمحبتهم إليهم وإيمانهم بهم كجزءٍ من أركان الإيمان. ومن هذه الأغنيات أغنية «أمنت بالله» وكلماتها:

أمنت بالله   أمنت بالله

نور جمالك آية.. آية من الله

أمنت بالله

نور جمالك نور عجيب   يطفي في القلب اللهيب

يذرف الدمع الصبيب   كلٌّ من طبعه هواه

نور جمالك آية.. آية من الله

وكذلك أغنية «ياصلاة النبي على حنّتك» وتكرر فيها

لفظة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مرات عديدة، تقول الأغنية:

يا صلاة النبي، على حنّتك بـ إيديكِ

يا صلاة النبي، على كحلتك بـ عنيكِ

جبت الأساور وجيت أطل عليكِ

ولقيت عريسك أحسن منّي عليك

ياصلاة النبي على كحلتك بـ عنيكِ

يا صلاة النبي على حنّتك بـ إيديكِ

وهناك أغنية خاصة بالحجاج المسافرين إلى مكة المكرمة:

يا حبيب الله يا سيد أمّتك

إمتا يوصل يا هناه

يا هناه اللي انوعد

ياهناه اللي انوعد

النخلة طالت يانبي

وباست إيديك

وده الشجر جاك

يانبي سلّم عليك

حتى الغزال جاك يانبي

وباس ايديك

ياحبيب الله

ياسيّد أمتك

إمت يوصل

ياهناه

يا هناه اللي انوعد

ياهناه اللي انوعد

الوظيفة النفسية للأغنية الفلسطينية :

ولقد أوجدت الأغنية الشعبية متنفساً عفوياً لبعض الحاجات النفسية المكبوتة وسمحت لها بالانفلات من قيود المجتمع التي تكبحها، لكن هذا الإنفلات جاء بطريقة مهذبة يقبلها المجتمع رغم تقييده لهذه الحاجة (حاجة

الحب)، ونبذ التعبير عنها بصراحة، وإذا قارنا بين الوظيفة النفسية للأغنية وبين وظيفة اللاشعور نجد أنها أدت وظيفة مشابهة تماماً لما يقوم به اللاشعور عندما يعكس مافيه من رغبات مكبوتة، فيلقي بالاحلام أثناء النوم على صاحب تلك الرغبات، وهذه الأحلام تصور له أن يحقق أمانيه المكبوتة فيراها في أحلامه كما يرغب أن تكون في الواقع في حين لا يستطيع المرء الحديث عنها في اليقظة، فتبقى راقدة في اللاشعور حتى ينام المرء، ومن ثمَّ نجد لها متنفساً أثناء النوم، وهذا المتنفس هو اللاشعور الذي يسيطر على المرء أثناء نومه[1]، فعند التأمل في قصائد الأغنيات الفلسطينية التي تتحدث عن الحب والغزل لانجد فيها تلك الكلمات الصريحة، وذلك بدافع الخجل، الذي هو عامل اجتماعي ضروري لصلاح المجتمعات، ومن الأغنيات التي عبرت عن معنى الحب:

هاتوا القلم والدّواه

لاكتب على كفّي ياعيني آه

سرّ المحبة أنكشف

وايش طالع بـ إيدي ياعيني آه

(١) قبس من تراث المدينة، ص٣٨ .

هاتوا القلم والدواه

لاكتب على كفّي ياعيني آه

ما أفوتك ياولفي ياعيني آه

❖❖ وفي أغنية «يا أم العباية»، تظهر لنا معاني الغزل العذري في صور جميلة بعيدة عن الألفاظ النابية ومترفعة عن المعاني الهابطة فهي تصور بنت العم بزيّها المحتشم وجمالها الأسمر الذي هو آية من آيات الله سبحانه وتعالى، وبيئتها المحافظة تقول الكلمات:

يا أم العباية حلوه عباتك

يا سمراويّا زينه صفاتك

هلا ومِت هلا يا سبع الفلا

والقلب إنكوى من يوم فراقك

دلالك آية زينة بصفاتك

سبحان من صور لونك هالاسمر

وشّك المدوَّر أحلى من السكر

على قلب دايب

يابنـت عمّـي إوعـك تنهـمّي

أبداً ماتـنهمي لأفـديك بـدمّي

روحي وحياتك

ياحياة الــروح والقـلب المجـروح

والـجسـم مطروح من يـوم فرقـاقك

يا أم العـبايــا حـلـوه عبـاتـك

الوظيفة الاجتماعية :

وتأخذ الأغنية الشعبية الفلسطينية جوانب اجتماعية عديدة، سواء على صعيد المجتمع أو القبيلة أو الحمولة أو الأسرة، بماتمثله من عادات وتقاليد، ورثوها كابراً عن كابر، وستبقى على مرِّ الزمن كتأصيل لهذا الإنسان على هذه الأرض المباركة، وتمثلت الأغنية الاجتماعية في أغاني الزواج فهي تتحدث عن تقاليد الزواج والتي تبدأ عادة بذهاب الجاهة المؤلفة من العريس ووالد العريس وأهله، إلى والد العروس والذي هو موكلها في الزواج، فيطلبون يد العروس، وبعد موافقة والد العروس على الخطبة، يتم

الاتفاق على المهر، وتقرأ الفاتحة، ويقوم العريس بتلبيس العروسة «دبلة الخطوبة» وبعض الحلي مثل الأساور والعقود وهذه تسمّى الشبكة.

- ومن الأغاني التي تصور استعداد الشاب لدفع كل ما يطلب منه من مهر من أجل أن يحظى بالعروس هذه الكلمات.

واشو طلب بيّك طلبه على الرّاس

طلب ميتين بارود تـ يلبّس الحراس

وإشو طِلب بيّك طلبه على العين

طلب ميتين بارود تَـ يلبّس الزين

- وعندما يدفع العريس المهر لوالد عروسه، تزغرد النساء بهذه المناسبة سائلة المولى عز وجل أن يعوضه بدل المال صبيان، فتقول:

آيي يا عريس لاتندم على المال

آيي بيعوض اللّه بدل المال صبيان

آيي وأنا طلبت من الله

يجيك بدل الولد عشرين صبيان

وتدخل المعتقدات الخرافية القادرة على دفع الشر وجلب الخير للعريس، فكما تدعو الله أن يحفظ العريس، ايضا تحاول أن تحوطه «بالخرزة الزرقاء» تقول الزغرودة:

آيي ياحوطّك باللّه

آيي والثانية ثنتين

آيي والثالثة خرزة زرقه

آيي ترد عنك العين

- وفي ليلة الحناء، تحظى العروس أيضاً بأغنية خاصة لهذه المناسبة:

الليلة الحنّة يابنات

اطلب واتمنّى ياعريس

واطلب واتمنّى يا لا لا

والليلة الليلة رضّاها

ياطيور السّما تنعف لغاها

الليلة الليلة فرضها

ياطيور السّما تنعق لغوتها

- وعند تخطيرة العروس «مشيها» إلى بيت عريسها وتحيط بها الفتيات يحملن الشموع تردد النساء هذه الكلمات:

اتخطري اسم الله يازينة

ياوردة من جوّا جنينة

زهرة القرنفل - يا عروسة -

والفل، خيّم علينا

واتخطري بعقد اللولو

شوفي العوازل شو بيقولو

عريسك يسلم طوله

واتضلّي فيه متهنيّه

قويم اطلعي على سريرك

والله والنبي يجيرك

ابن الأوادم عشيرك

شيّع وجاب لك ألانيّة

- وكما حظيت مواسم الأفراح بأثمان كثيرة ومتعددة، كذلك كان للمواسم الأخرى نصيبها من الأغاني، فهناك أغان لحفل الختان، ولجني الثمار، وحصد الزروع، وغنّى للأرض، التي تحتل مركز القلب بسهولها ووديانها، بشجرها وورودها، بمدرها ووبرها، بسمائها، بليلها ونجومها، بانهارها وسواقيها، ببحرها وسفنها. وطيرها. وهناك أغان للغربة وللسفر، ونورد هنا أمثالاً لهذه المناسبات :

إقلب عليَّ وأقلب عليك

لطلوع النجمة البدرية

قليبي يا أربع وديان

سواقي تقلب ع ميّه

- ومن الأغاني التي تتحدث عن الغربة والغائبين أغنية «يا طير ياغريب»:

يا طير يا غريب يا مروِّح

خذني معاك لانوّح

غريب ومسافر ع بلادي

وأنا غيرك حبيبي ما أنادي

لو كنت تحفظ لي ودادي

وتفرِّح قلبي هـ المسكين

تعال معاي وسليني

والبعد يا روحي كاويني

فاكرني ولا ناسيني

تعال معاي وسليني

سمات الأغنية الشعبية

الأغنية الشعبية الفلسطينية، عريقة عراقة شعبها وأصيلة، وقابلة للتطويع والتطور طبقاً لاختلاف اللهجات المحلية، واختلاف ظروف البيئة الطبيعية، وهي سهلة النطق واللحن وتحمل المعاني الجميلة والأحلام التي يتمناها كل شخص، لذلك نجدها احيانا تلجأ إلى المبالغة، مثل:

ياطولك طول عود الزّان طولك

بنات البدو مارَبّين طولك

لوإنك في السما العالي لأطولك

لو السيف يلعب على الرقاب

كما أنها تصور العادات والاتجاهات الاجتماعية المختلفة وكذلك القيم والتعاليم الدينية، كما تشمل جميع جوانب الحياة في المجتمع الفلسطيني. وفي فترة ما بعد النكبة اتجهت معظم الأغاني اتجاهات وطنية، للتغني بالأرض والاستعداد للعودة وكذلك انتشرت قصائد الغربة والبكائيات نظراً للهجرات التي أصابت الشعب إثر النكبة فتشرد أبناء القرية الواحدة إلى أماكن متفرقة في الوطن العربي.

فمن الأغنيات التي شدت بالأرض:

قلبي يا أربع وديان

سواقي تقلب ع ميَّه

أولهم يانهر العوجا

من بعيد تسمع دويّه

ثانيهم يانهر روبين

ياما زاروك الزّواره

ثالثهم يا وادي غزة

ياما مَرّوك التجاره

رابعهم يا وادي العريش

خلّع كلّ الأشجاره

ومن أغاني الغربة :

روح الغايب على بلده

وانجمع شمله على ولده

روح الغايب على داره

وانجمع شمله على عياله

روح الغايب على بيته

وانجمع شمله على خواته

حـرب الأغـانـي الشـعـبـيـة

الهتافات الشعبية التي يرددها الفلسطينيون في المناسبات الوطنية مثل: ذكرى النكبة، إحراق الأقصى، تشييع جثمان شهيد... إلخ، لها علاقة بالأغاني الشعبية الفلسطينية، نظراً للمعاناة التي احلّت به جراء الاغتصاب

الصهيوني لأرضه وماتلاها من نكبات وحروب، حتى انتفاضة الأقصى المباركة، مما دفع الشعب الفلسطيني إلى المقاومة المسلحة من جهة، والتظاهرات الجماهيرية من جهة أخرى. حيث تهتف بقصد الاحتجاج، ولزيادة دافعية الآخرين للمشاركة في هذه المناسبات التي زادت ولم، ولن تنتهي إلا بتحقيق الاستقلال لدولتنا - إن شاء الله - وإلا فإن الصراع لن ينتهي.

والهتافات في اطارها التراثي تعتمد على كلمات الأغاني الشعبية، كالعتابا والدلعونا وجفرا واغزيل ومشعل وابو الزلف، وزريف الطول، والسامر والزجل والزغاريد والزفة. وكذلك أوزانها الموسيقية وموضوعاتها كأغاني العمل، والأغاني الدينية، وأغاني الأفراح وأغاني الهدهدة والبكائيات.

وقد أثرت الظروف السياسية في سيادة بعض الهتافات والأغنيات حسب المناسبة، وكان لأغاني الزفة التقدم على غيرها وذلك لموسيقاها وقابليتها لأن تكون جماعية، فضلاً عن أن المظاهرة تشبه الزفة إلى حدٍّ كبير وهي تمجيد للنضال، وهي زفة لإسرائيل أي لعنها وفضحها.

وقد اختفت بعض الأغاني والهتافات الفلسطينية التي

كانت سائدة في فترات سابقة، وتطور بعضها، حيث اختفت أغاني الربابة بعد أن كانت ذائعة في الستينيات، والتي تمجد الفدائي والشّهيد، وتحث على مقّاومة العدو الصهيوني مثل «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. ويا بلال يا حبيب بدنا نضرب تل أبيب».

وقد تم التعامل مع المأثور بثلاثة أشكال: الأول، النقل، مثل: «إحنا أولاد اليوم، احنا دباحين القوم»، والثاني: التحرير، مثل: «ياصهيوني صبرك صبرك، في رام الله بنحفر قبرك»، وتم تحريره إلى «يابارك صبرك صبرك في رام الله بنحفر قبرك»، وهكذا، والثالث والأخير هو: المحاكاة: مثل: «وحدة وحدة وطنية.. إسلامية ومسيحية»، و«يا أمتنا الوطنية بدنا أكثر جدية».

وقد انتشرت الأغنية الشعبية خاصة بعد ترك الأرض عنوة في العام ١٩٤٨م، والتي أصبح حلم العودة الهاجس اليومي لفلسطيني الشتات، عبر عن هذا الهاجس بمفردات خصبة تمثلت في: العودة، الزنزانة «الأسير»، المقاومة.. الشهادة.. فالكفن هو رداء الفدائي، والنعش غاية المقاتل إلى الجنة والخلود:

بالأحمر كفناه

بالأخضر كفناه

بالأسود كفناه

لاريح تحاسبنا ان اخطأنا

لا الرمل الأصفر

يادمه النازف ان كنت تراباً..[1].

❖ ثم يزف عريس الوطن:

جابوا الشهيد جابوه

وبعلم الثورة لفوه

أنا أمه

يا فرحة أمه في عرسه

في ليلة دمه

يا اخوانه للثورة انضموا

زغرودة ياللاحيوه[2].

---

(١) أغنية لمارسيل خليفة .

(٢) أغنية لفريق الجذور .

وكذلك يرفض الفلسطيني التعايش مع استلاب الوطن، حتى الذي لم يعرف ثراه وولد منفياً عنه، ولكنه يمثل له اقدس الأقداس:

إلى دمنا يذهبون بعيدا

إلى دمنا يذهبون

ويأتون من ثورة الأرض[١]

وعداً جديداً ولايصمتون

ومن عمق كل السجون

تجيء بطاقاتهم أغنيات

ويزهر عبر الشوارع

يزهر عبرالشوارع صوت الحياة

ويكون لنا وطن قادم

وطن قادم

في العيون

---

(١) أغنية لفريق الرايات .

وكذلك فإنه يعلم أن تحرير الأرض لابد لها من ثمن، فالشعارات الجوفاء والآمال البراقة التي تتكىء على وعود هشة لاتحقق هدفاً ولا تعيد أرضاً وإنما السلاح هو الحل الأمثل لاسترداد ما سلب واسترجاع حق مغتصب، لذا فقد غنّى له «بإيدي رشاشي» :

بإيدي رشاشـي　　　وبدي أظلي ماشي

وأرضنا المحتلة　　　مابترجـع بـــلاش

وبدي أظلي ماشي

رشاشي ورصاصي　　　طريق الخلاص

واللي بيوقف سيري　　　بنطلقه بالراس

وبدي أظلي ماشي

رشاشي بايدي　　　أخوي وصديقي

لغوتنا مفهومه　　　بينجدني بالضيق

وبدي أظلي ماشي

رشاشي عاكتافي　　　فرشتي ولحافي

وطول ما احنا سوية　　　عمرنا ما نخاف

وبدي أظلي ماشي

وقد شكلت انتفاضة الأقصى المباركة، مفصلاً في النضال الفلسطيني وأثارت تدفقاً ابداعياً في شتى الحقول الثقافية:

حجر حجر.. بيدي حجر

وعلى اليد الأخرى دمي

بهما انتصرت على الردي

هذا سلاحي فاحملوا كلاً سلاحاً

نادت بكم فلسطين يا مرحبا

لاترسلوا خبزاً لنا مدوا اللهب

أو ازرعوا لغماً بصحراء الغضب

علامة النصر.. الحجر[1] .

إن هذه الأغاني بموسيقاها تمثل أصالة وتجذراً لهذا الشعب على أرضه فمنحته هويتها في الوقت الذي لم يستطع اليهود أن يوجدوا لأنفسهم خصوصية موسيقية لهم.

---

(١) أغنية لفرقة الجذور، وانظر بيان الثقافة، الأغنية الفلسطينية... قرن من الدم والدمع، أشرف الشكعة، العدد ٤١، بتاريخ ٢٢/١٠/٢٠٠٠م.

الأزياء الشعبية الفلسطينية

ومن ألوان التعبير الفولكلوري الملموس، الزي الشعبي، والذي تعرض كذلك لقرصنة فكما نهبت الأرض، فقد سلبت الثقافة وضربت في أبسط وأجمل مفرداتها، فمن الممارسات التي تجاوزت الحد ذلك القرار الذي اتخذته شركة «ال. عال»، باتخاذ الزي الفلسطيني «الثوب المطرز» زيّاً خاصاً لمضيفاتها، حيث نشرت جريدة «الجيروزلم بوست» صورة لإحدى المضيفات وهي ترتدي الزي المطرز، مما آثار جدلاً عميقاً في حينه بين أصحاب الزي الشرعيين، وبين اليهود، وادى هذا الجدل إلى عملية تنافس وتسابق على اقتناء وتطوير الزي الشعبي.

وما هذا الهجوم الصهيوني إلا محاولة لاستئصال هذه الجذور، وقطعها عن ذاكرتها، وبالتالي محو الهوية ومحو الذاكرة معاً، بعدما فشل العدو في استئصال الإنسان الفلسطيني من الأرض، وبعدما رأى أن هذا الإنسان يتجدد بدمه وفي حياته، عبر دورات انتفاضية تثور من وقت إلى آخر، لتكون الرسالة واضحة تماماً أمام هذا العدو: فلسطين للفلسطينيين بكل رموزها الثقافية والتاريخية والجغرافية والدينية.

فالثوب الفلسطيني بتطريزاته وأشكاله المختلفة سمة من سمات الشعب الفلسطيني، وجزء من تراثه الوطني، وشعاره الاجتماعي، بل إنه من المظاهر الخاصة التي تميز الشعب الفلسطيني عن غيره من الشعوب، خاصة وأنه يقوم بتطريز ملابسه بنفسه وبأساليب تقليدية متنوعة ترتبط ارتباطاً لصيقاً بكل بقعة من أرضه على مدار التاريخ الممتد منذ آلاف السنين.

فقد أكدت كتب التاريخ أن الأزياء الشعبية الفلسطينية القديمة ظهرت قبل عام ٢٨٠٠ ق. م. في مناطق تراثية متعددة مثل: «مغارة الزطية الواقعة في المنطقة الشمالية الغربية لبحيرة طبريا في شمال فلسطين، ومغارات الطابون والسخول والوادي والوعد وكباران في منطقة الكرمل، وكهف داخل جبل القفزة جنوب مدينة الناصرة، وكهف بئر السبع وغيرها، وتشير النقوش التي تم العثور عليها في مغارة «ام قطفة» إلى وجود الملابس الجلدية[١] .

وقد تفوقت المرأة الفلسطينية في مجال صناعة الثياب، حيث كانت الفتاة تعاني من فراغ طويل وذلك لأنها

---

(١) التطريز الفلسطيني د. عبدالرحيم عبدالواحد، بيان الثقافة، العدد الأربعون ٢٠٠٠م.

كانت تلزم البيت فيما الرجل منصرف للعمل في حقله، فكان عليها أن تتعلم الخياطة والتطريز، ومن ثم تبدأ في إعداد قطع الثياب المطرزة، واغطية الفراش والأواني وصنع المناديل المزخرفة بالحرير والخرز،، ونحس بالأثر الديني واضحاً عند استقراء موتيفات التطريز والتي تمثل في غالبيتها وحدات هندسية ونباتية، مع حالات قليلة تصور فيها الطيور، وهذا يعكس وجهة النظر الإسلامية في كراهية التجسيد ورسم الصور الآدمية والحيوانية كرها في تقليد الوثنية التي هزمها الإسلام[١] .

أنواع الثوب الفلسطيني :

يمثل الثوب الفلسطيني تاريخ الشعب ومراحل حياته السياسية والاجتماعية وكذلك الجغرافية، حيث يتغير من منطقة إلى أخرى، ولكنها في الإطار العام تخرج في وحدة فنية داخل اطار واحد، وإن اختلفت بعض الشيء، ومن أهم أنواع الثوب الفلسطيني[٢] :

---

(١) موسوعة الفولكلور الفلسطيني، ج٣، (مرجع سابق) ص٦٥٩.

(٢) أنظر موسوعة التراث الفلسطيني، الأزياء الشعبية الفلسطينية، عبدالرحمن المزين، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص١٢٩، وما بعدها

الثوب المجدلاوي :

نسبة إلى مدينة المجدل، التي كانت مركزاً لنسيج قماش قطني ذي لون ازرق، مع خطوط حريرية حمراء، وخضراء على أطرافه، وكانت الثياب بسيطة باستثناء وحدة تطريز صغيرة عند فتحة العنق، وأحياناً يخاط جيب عند الرقبة.

وينقسم الثوب المجدلاوي إلى: الثوب الجلجلي، البلتاجي، أبوميتين، «المية ومية»، الجنة والنار، حيث يتشكل الثوب من خطوط طويلة على طول الثوب وذو لونين أحمر ويرمز إلى النار وأخضر ويرمز إلى الجنة.

الثوب الشروقي :

وهو من عهد الكنعانيين، وهو مصنوع من القماش الأبيض، مع فتحة كبيرة على الصدر المزخرف بنقوش وخيوط وغرز على أشكال مختلفة من خيوط الحرير، كما يتميز هذا الثوب بتعرجات في طرفه الأسفل في شكل جميل، وانتشر هذا الثوب في مناطق المجدل، الجيّة، بربرة، اسدود،كوكبا، حمامة، برير، نابلس، ومنطقة المثلث.

الثوب السبعاوي «التوبيت» :

وقماشه أسود اللون، ويلبس في منطقة النقب، وتتركز صناعته وارتداؤه في منطقة النقب، والأزياء هناك تخضع لمعايير عربية قديمة، لها احترامها وتقديرها، بل كان يعتبر الخروج منها بمثابة انتهاك صارخ للعادات والتقاليد التي هي أساس الحياة الاجتماعية للأسرة، ومن أبرز تلك العادات وجود أثواب معينة لمناسبات خاصة لابد من الالتزام بها، فمثلاً زي الصبايا «الفتيات في سن المراهقة»، يتميز بلونه الأسود المزركش باللون الأزرق فقط. وثوب المرأة المتزوجة يكون ذا ألوان زاهية مختلفة، وهناك المرأة التي توفي عنها زوجها «الأرملة» والذي يتميز ثوبها بمزركشات الخيوط الزرقاء الجنزارية والمرقطة، أو الزخارف المنمنمة بالخيوط الخضراء، أما ثوب المرأة العجوز والتي تجاوزت الستين فيتميز بالتطريز بالخيوط الزرقاء الجنزارية.

الثوب المرقوم :

وهو خاص بالنساء المتزوجات، وينتشر في النقب، وخاصة بئر السبع، ومن مميزاته، المواصفات الكثيرة

المعقدة في التطريز التي تغطي القبة الأمامية، والصدر والجوانب والذيل والأكمام، والتي غالباً ما تكون مطرزة بأشكال أشجار السرو، والنجمة الثمانية، وسعف النخيل.

ومنها ما هو على شكل معين، وبعضها يغلب عليه الخطوط المتوازية بألوان عديدة. وهناك ثوب المرأة المتزوجة لمنطقة بئر السبع، ويشتهر بارتدائه أفراد قبائل: الترابين، الجبارات، الثوابتة والعزازمة، فيما يوجد أيضاً الثوب التلحمي المسمّى بثوب الملكة، واطلق عليه هذا الاسم لأنه كان قاصراً على استخدام الملكات الكنعانيات في فلسطين، والذي يتميز بطراز خاص من الفن والزركشة المنتشرة في كل جزء منه بألوان وخيوط حريرية منها: الأزرق الجنزاري، والأحمر الغامق والأحمر الناري.

الثوب الدجاني :

واسم الثوب مرتبط بمعبود كنعاني، عبده الفلسطينيون في مناطق الساحل في غزة، عسقلان، أسدود، وبيت دجن، وكان يرسم على شكل خرافي، نصفه الأعلى إنسان، والأسفل جسم سمكة، ويمسك بكل يد سمكة. ومازال هذا الاسم

يطلق على الأفراد والعائلات والقرى الفلسطينية، وهذا الحفاظ دليل على الاستقرار، وهذا الثوب كان مقتصراً على كهنة إله داجوان، ثم على أهل بلدة بيت دجن، ثم عمَّ في منطقة الرملة ورام الله. والثوب الدجاني نوعان: ذو الأكمام الواسعة (الردان)، والثاني ذو الأكمام الضيقة.

ثوب الجلاّية :

وهو النوع الأكثر شيوعاً في فلسطين، وله أنماط تتبع كل منطقة، فمثلاً هناك ثوب جلاية الخليل، الذي يتميز بسماكة قماشه ولون الأزرق الذي يميل إلى الكحلي، أما شكله فله تصميم ذو نقوش، وألوان كثيرة. وهناك جلاية غزة ويستخدم في نقوشه الخيوط الحريرية وينتشر في مناطق: عراق سويدان، بيت دراس، بيت جبرين[1] .

وهناك العديد من أنواع الثياب الفلسطينية المطرزة، والتي تعود في جذورها إلى عهد الكنعانيين، والتي أخذت في الانتشار خاصة بعد أن أصبحت أرض فلسطين أرضاً مقدسة، حيث كان الحجاج المسيحيون يحملون الهدايا إلى

---

(١) التطريز الفلسطيني (مرجع سابق).

بلادهم من الثياب المطرزة ومن الفنون اليدوية الأخرى، وأصبح الزي الخاص بالكنيسة مثلما كان الزي الكنهوتي اليهودي كنعاني الأصل. كذلك نقل الاقباط من التطريز الكنعاني إلى مصر، وكذلك نقل المحاربون الصليبيون هذا الفن إلى أوروبا، ثم نقله الأتراك إلى بلاد البلقان وجنوبي الاتحاد السوفييتي[١].

هذا الثوب الفلسطيني المطرز قد أضيف إليه لوناً جديداً على الألوان السابقة، فقد شرفه لون الدماء الطاهرة في سبيل الدفاع عن الأرض، عن تلك العلاقة الأزلية والأبدية بين الثوب والأرض، لهذا عملت المرأة الفلسطينية على إقامة عروض الأزياء للتواصل مع هذا التراث والعمل على حمايته من كل يد تحاول أن تطاله بسوء.

(١) موسوعة الفولكلور الفلسطيني ج٢، ص٥٨٥ .

الأســطـورة

الأسطورة، نوع قصصي عاش في أزمنة قديمة مع جميع الشعوب، وإذا كانت الأسطورة ماتزال تعيش اليوم مع بعض الشعوب، فلابد أن هذه الشعوب ماتزال تعيش ظروفاً فكرية، ملائمة لأن تعيش فيها الأسطورة[1]. والأسطورة نظام اتصال، يقوم الحديث على تحريكه، وهي - كأية رسالة أخرى - لابد وأن تقول شيئاً حول شيءٍ ما، وبهذا فهي تخضع حتماً لمقتضيات قوانين الاتصال، فالعنصر الأسطوري يلد من تقاطع الواقع مع اللاواقع، مع الخيال، وغالباً مايكون البطل في القصة الأسطورية مزيجاً إنسانياً والهياً، فإنه يتصرف في إطار بشري يسيطر عليه الحضور الالهي، وهي أيضاً نتيجة الحوار القائم بين الإنسان منذ ولادته وبين الكون، أو هي كما يقول أ. جول تدجج «عندما يتبدى الكون بشكله أمام الإنسان عن الطريق السؤال والجواب، فإن شكلاً ما يتولد، وهذا الشكل نسميه اسطورة»[2] .

(١) القصص الشعبي، جمعه وتصنيفه، د. نبيلة إبراهيم، مجلة المأثورات الشعبية العدد الثالث، السنة الأولى، يوليو ١٩٨٦م، ص٤٨ .

(٢) هندسة المعنى في السرد الأسطوري، د. قاسم المقداد، دار السؤال دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ ، ص٨٩.

وهناك من يرى أن الأسطورة هي مصدر أفكار الأولين وملهمة الشعر والأدب عند الجاهلين [1] ويقول إنها الدين والتاريخ والفلسفة جميعا عند القدماء وهي فكرة بدوية تاريخية صبغت بصيغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف ودراسة الأسطورة هي ما سطر عند الجاهليين تاريخا كان أو دينا والتي لم تبق على بداوتها الطبيعية لتأثرها بالمدينة التي كانت تجاورها وكذلك تأثرها بآراء الصابئة واليهود والنصارى في الجاهلية فصبغت بصبغتها [2].

قـراءة الأسـطورة للتـاريـخ :

تعود علاقة الإنسان بالكون إلى نحو نصف مليون سنة، وذاكرته لاتعي إلاّ مدة زمنية بسيطة بالمقارنة إلى بداية حياته، تقدر بحوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد،

---

(١) الجاهلية : اطلق هذا اللفظ في الإسلام، على الزمن الذي كان قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أو تطلق على زمن الكفر مطلقاً.

(٢) الأساطير والخرافات عند العرب، د. محمد عبدالمعيد خان، ص١٤، ٢٠، الطبعة الثالثة ١٩٨١، دار الحداثة بيروت.

وحين حاول الإنسان أن يعرف بداياته لجأ إلى جناح الخيال يغرد به في ضبابية التاريخ، فعرف الأسطورة لتفسر له هذا المجهول، «فانتج القلق الوجودي للإنسان أسئلة كونية مشتركة بين بني الإنسان عن بدايات الأشياء وأصولها والظواهر الطبيعية والاجتماعية المحيطة، هذه المفاهيم والأسئلة الكونية عبرت عنها الشعوب بوسائل مختلفة، منها الأسطورة، والحكاية الشعبية، والملاحم البطولية القديمة، وماتحمله من مفاهيم الزمان، والمكان، كما عبرت عنها بأفعال وممارسات متنوعة، مثل تقديم القرابين والأضاحي، وإقامة الصلوات واستطلاع النبوءات والحجج.. وما إلى ذلك»[١]. فالأسطورة، هي قراءة أولى لتاريخ الإنسان، وهي قراءة تعويضية في غياب «الحقائق التاريخية»، وهي أيضاً قراءة رمزية من حيث أن الفكرة الأسطورية عن الزمن هي فكرة كيفية مجسمة تناسب الرموز التي تحملها بغض النظر عن التسلسل الزمني لأن الإنسان لا يهمه أن يعرف «متى» حدث ماحدث، ولكنه يريد أن يعرف «ماذا»، حدث في الماضي الذي لم تسجله ذاكرته، وكذلك علاقة الأسطورة بالمكان، فهي نفسها علاقة البناء الفني برموزه، أي أن الأماكن الحقيقية في هذا العالم لاوجود لها في الأسطورة،

(١) بين التاريخ والفلكور، د. قاسم عبده قاسم.

ذلك أن المكان أو البيئة الطبيعية رمز لما تحمله الأسطورة من المضامين والدلالات والمغزى، ولكنه ليس مكاناً حقيقياً، كما أنه ليس مسرحاً طبيعياً لأحداث الأسطورة التي تجري خارج حدود المكان وخارج إطار الزمان[1] .

الأسطورة في أرض الإسراء والمعراج :

وإذا كانت الأساطير تتحدث عن الآلهة المتعددة، فإن ذلك لايوجد في الأساطير التي يتداولها الشعب في هذه الأرض المباركة، كغيرها من أراضي المسلمين، لأنهم يؤمنون بإله واحد، وإنما هناك أخبار تدور حول الأنبياء الذين أحبهم الله ﴿والقيت عليك محبة منّي﴾، وكلمهم واختصهم بعنايته، وقد تدور هذه الأساطير حول أولياء الله الصالحين الذين أعزهم الله بالكرامات، وحقق على أيديهم المعجزات.

ويمتزج الإرث الأسطوري امتزاجاً كبيراً بالحكايات الدينية، حيث تميز بأنه تضمن مرويات تنتمي إلى اتباع الديانات السماوية الثلاثة: الإسلام، والمسيحية، واليهودية،

---

(١) المرجع السابق.

هذا فضلاً عن الرواسب الوثنية، ولما كانت الغالبية العظمى للسكان في فلسطين من العرب المسلمين، فإنهم حاولوا أن يصبغوا أساطير ماقبل الإسلام بصبغة إسلامية وذلك للتحريف الذي حصل في الديانتين السابقتين للإسلام.

ومن الإرث الأسطوري أخبار مستفيضة عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تقول الأسطورة: «إن إبراهيم الخليل - أثناء هروبه من النمرود، كان يعبر الحقول فالتقى بقطيع من الغنم، وطلب من الغنم أن تحميه من خيّالة النمرود الذين يتعقبونه، ورفضت الغنم السوداء تلبية رجاء «أبونا إبراهيم»، وتركها في طريق هربه إلى أن التقى بقطيع من النعاج وطلب من الغنم البيضاء أن تحميه. فطلبت منه أن يستلقى على الأرض وتجمعت حوله بشكل متراص حتى اختفى عن الأنظار، وعندما مرّت خيّالة النمرود لم تستطع أن تكتشف مكانه، وبذلك نجا. ودعا «أبونا إبراهيم»، الله أن يمنح النعاج تلك الإلية العريضة، وأن لايمنح مثل ذلك للغنم السوداء. وعوقبت البغال بعدم التناسل لأنها تطوعت بجلب الوقود «الحطب» للنار التي القى النمرود فيها إبراهيم الخليل، وحملت الجنود الذين تعقبوه، وبعد أن هرب الخليل من النمرود ذهب ليبني الكعبة في مكة، وأراد إبليس أن يخلق متاعب بين إبراهيم وزوجته هاجر، وأغراها لتقنع زوجها

بعدم بناء الكعبة فتناولت حجراً ورجمت به إبليس. ومن هذا الحادث حصل ابليس على لقب الشيطان الرجيم.

وبعد أن انتهى من بناء الكعبة أمر إبراهيم ببناء حرم في القدس، ثم أمِرَ ببناء حرم ثالث في الخليل، وقد اهتدى إبراهيم على مكان الحرم الخليلي بواسطة ضوء سماوي سلط على المكان ليلاً. وهناك أسطورة أخرى تقول إنه اهتدى إلى المكان على النحو التالي: جاء ثلاثة من الملائكة في شكل بشر إلى إبراهيم، فظنهم ضيوفاً، فذهب ليذبح لهم ذبيحة، وهرب العجل الذي يود إبراهيم ذبحه، وتبعه حتى دخل إلى كهف، وهناك سمع صوتاً يقول له: إنك في ضريح آدم وعليه يجب أن تبني مزاراً. وتقول أسطورة أخرى أن جملاً دلَّ إبراهيم على مكان المزار، ولكن إبليس ضلله، وبعد أن بنى جزءاً من البناء هداه الله إلى المكان الصحيح.

ومن حكايات أولياء الله الصالحين، أن هؤلاء الأولياء يحمون من أقام بجوارهم أو استجار بهم. فقد قتل الوليُّ النبيُّ حانون بالقرب من بير زيت طيورَ الشِّنار التي كانت تعتدي على البيدر الموجود بجواره، وحمى الولي النبي صابر الغزاوي الذي وضع حمل جمل من القمح ببابه من اللصوص الذين حاولوا الاعتداء عليه.

وفي أول الأمر كان اللصوص يتصورون أن الغزاوي وجمله وحمل القمح تتحرك داخل المقام كلما اقتربوا منها، وعندما يبتعدون يرونها وقد عادت إلى مكانها، ولم يبتعد اللصوص عن الغزاوي، إلا بعد أن استحال النبي إلى أفعى وطرد اللصوص بعيداً عن الغزاوي المستجير به.

وتتحدث أسطورة عن هرب العذراء مريم بابنها من وجه بني إسرائيل، ومن أجل أن يسكت المزارعون ويمتنعون عن ذكر وجهة هربها للذين يقتفون أثرها نبت الحمص الذي يزرعونه، واستحصد في يوم واحد.

وامتلأ بئر «عونا الضحل» لتشرب منه العذراء، وأما النعاج التي سترت مرور العذراء فنبت لها صوف كثيف، وبعكس ذلك فإن الغنم السوداء ظلت جرداء وارتفع ذنبها لأعلى يفضح عورتها لأنها فضحت مرور العذراء بسبب الثغاء(١).

هذا وقد اختلفت المفاهيم المتعلقة بالأساطير القديمة، وتنوعت بقدر اختلاف اتجاهات الباحثين وتنوعها، ففريق يرى أن الأساطير مجرد خرافات تافهة لاتحمل سوى

---

(١) انظر موسوعة الفولكلور الفلسطيني، الجزء الأول، نمر سرحان، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، ص٢٩ وما بعدها.

قدر ضئيل من الأهمية الثقافية والروحية، وأن الأسطورة «ليست حقيقة»، أو «زائفة»، على نحو ما.

بينما يرى فريق آخر أن أساطير القدماء تمثل واحداً من أهم إنجازات الروح الإنسانية، والعقل الإنساني التي لم تلوثها فذلكة الروح العلمية، والتحليلية السائدة في أيامنا هذه، وكذلك فإن الأساطير تفتح آفاقاً رحبة للرؤى الكونية التي حجبت وراء ستار الفكر الحديث بكل تعريفاته المانعة، ومنطقه الذي يفتقر إلى الروح على حد زعمهم(١) .

الحكاية الخرافية

ويرجع الفضل في تحديد نظرية للحكاية الخرافية إلى الباحث الروسي فيلاديميربروب(٢)، وتعود هذه التسمية إلى رجل عربي قديم اسمه «خرافة»، وقد حدث أن اختطفته الجنّ، وعاد إلى الأنس بعد فترة، وأخذ يحدث الناس بأحاديث عجيبة غريبة اسماها الناس «حديث خرافة»، وصاروا يشبهون بها كل حديث غريب لايصدقه العقل(٣) .

---

(١) بين التاريخ والفولكور، «مرجع سابق» .

(٢) القصص الشعبي، جمعه وتصنيفه، د. نبيلة إبراهيم .

(٣) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٢٠٤.

فتتسم الحكاية الخرافية بأن محورها البطل وليس الحدث «فمصير الشخوص الذين يعيشون التجارب في الحكاية الخرافية - أي الأبطال - هو الذي يفرض عليها الامتداد، فالأحداث تذكر بسبب صلتها بالبطل وسيره إلى أن يحقق هدفه، كما أن هذه الأحداث ليس لها زمان أو مكان محددان.

أما شخوصها فهي قليلة العدد، وإن تعددت فإن الفاعلية فيها تكون لواحد أو اثنين فقط، وهذه الشخوص شخوص هوائية لا أبعاد لها ولا أوصاف، لأن الحكاية الخرافية لاتصف أشكال شخوصها، بل تترك لخيال السامع حرية تصورهم. ويغلب أن تحتوي الحكاية الخرافية على شخوص غيبية أو ذات قوى خارقة كالغول والساحر والمارد والحيوانات والنباتات التي أعطيت صفات خارقة، وهذه الخوارق قد تكون خيِّرة فتقف في صف البطل، وقد تكون شريرة فتقف في سبيله، ولكن البطل يندر أن ينتهي إلى نهاية غير سعيدة.

ومن خصائص البناء الفني للحكايات الخرافية، عدم الولوج في التفصيلات، كما أنها تترك الزمان والمكان بدون تحديد، وهذا كله يترك لعقل السامع مجال التخيل الحر، كما أنها تخضع لنظام السلب والإيجاب، وهذا يعني

أن البطل الخيّر إذا صادف في حياته سلبيات فإن الحكاية لاتلبث أن تعوضه عنها بإيجابيات تسعده، فالحكايات تلغي الواقع المعاش المملوء بالسلبيات، وتبنى بدلاً منه واقعاً خيالياً إيجابياً لا مكان فيه للتعاسة والتناقضات. وهي تعتمد كذلك على المصادفات المقصودة وليست العفوية. ومثال ذلك أن البطل يحذر في كثير من الحكايات من أنه سيلاقي غولاً في طريقه، فإذا صادفها تطحن ملحاً، فإن ذلك يعني أنها في حالة تحفز للشر وقد توقع الأذى بالبطل، أما إذا صادفها تطحن سكراً فإنها تكون في حالة رضى وقبول، وعندما يصل البطل إلى الغولة يصادفها تطحن سكراً، ولم يحدث أن صادفها في الحالة المعاكسة.

وقد حافظت المجتمعات الإنسانية على الحكايات الخرافية عبر عصور طويلة، لأنها تؤدي للمجتمع وظيفة مزدوجة وهي التسلية والتعليم، أما وظيفة التسلية فتتحقق للناس من شكل الحكايات القصصي وأحداثها المشوقة، وشخوصها الغريبة، إلى جانب استمتاعهم بالعوالم المثالية السعيدة الخالية من الظلم والتناقضات والسلبيات، والتي تبنيها الحكايات بدلاً من العالم المعاش الذي يذخر بالسلبيات والتناقضات. وأما وظيفة التعليم فتتحقق من خلال ما تقدمه الحكايات من مضامين ومدلولات، ذلك أن الحكايات من خلال شخوصها وأحداثها تقدم للسامعين

العبرة والعظة الأخلاقية، وكثيراً من المبادىء والقيم السائدة في المجتمع، والتي يسعى المجتمع للحفاظ عليها، فهي وعاء اختزن فيه الشعب ثقافته ومعارفه ومعتقداته، وتجاربه، فكثير من جزئيات الحكايات الخرافية عبارة عن بقايا متخلفة من الماضي، تمثل أشكال المعتقدات الأولى التي نشأت قبل تكوين الحكاية بفترة طويلة[١] .

وفي هذا يقول المفكر الأمريكي ول ديورانت: «لاتكاد توجد سخافة في الماضي إلاّ وهي منتشرة في مكان ما في الوقت الحاضر، وما من شك في أن تحت كل حضارة بحرا من السحر والتخريف والشعوذة.. ولعل هذه ستظل باقية بعد أن يزول من العالم نتاج عقولنا وتفكيرنا»[٢] .

وإذا كانت الأسطورة تقوم على تصور للاله أو الآلهة أو أنصاف الآلهة، فإن ذلك قد ينسحب على الحكاية الخرافية ليقع على عدد لايحصى من المخلوقات التي لاعلاقة لها بالإله أو الأرباب المزعومة، غير أن هذه المخلوقات الشنيعة هي بعض الخلق المميز، ويكون الإنسان بمثابة حلقة الوصل بين هذه العوالم فبلاد اليونان القديمة امتلأت بالأرباب حتى اتخذوا لهم جبلاً عالياً فوق عالم البشر، وكذلك سلالات الكلت (Celts)، البريطانية القديمة عرفوا هذه

---

(١) الحكاية الخرافية، فردويش فون ديرلابن، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، ص٩٠ .

(٢) موسوعة الحضارة.

الآلهة في الطبيعة، وللهنود من قبل بوذا وحكمائه أعداد لا تحصر منها.

وكذلك فإننا نجد الحكاية الخرافية ترتبط مع الأسطورة بوشاج ما، وقد تبقى وحدها ذات مميزات وأغراض خاصة، ولاننسى أن الخرافة كما ذكرنا يمتلكها غرض رئيسي وهو التسلية أو الترفيه.. فالحيوان العادي غير المبدل في خلقته يدخل عنصراً هاماً في قسم الخرافات، فهو أحياناً مؤنّس، أي أنه يحمل صفات إنسانية، وأحياناً يحتفظ بحيوانيته وتظهر حكمة طبائعه في صيغة أعماله مقصودة وإرادية يقوم بها، الشيء الذي يضيف إليه عنصر التخطيط والتفكير، وهي حالة علمية، فهذا من الإنسان خيالية حلمية[1] .

وتمتاز أيضاً الحكاية الخرافية بخاصية التكرار، ذلك أن البطل إذا أقدم على المغامرة فإنه يفعل ذلك ثلاث مرات، وإذا ورد ذكر شيء فإنه يكون من ثلاث مرات، كالفتيات الثلاث والفرق الثلاث، أو الأغوال الثلاثة وهكذا، وتمتاز أيضاً بأن البطل غالباً ما ينتصر وتحقق سعادته بانتهاء الحكاية[2] .

---

(١) الحكاية الشعبية في أفريقيا، إبراهيم إسحاق إبراهيم، وزارة الثقافة، الخرطوم ١٩٧٧، ص٦ .

(٢) موسوعة الفولكلور الفلسطينية ج١ / ص٢٠٧.

نموذج من الحكاية الخرافية الفلسطينية.

البقــرة الصفــراء [1]

كان لرجل امرأة وثلاث بنات، وشاءت الأقدار أن يتزوج بامرأة أخرى فكان لها صولة وجولة في التحكم في زوجها. ومن شواهد هذا التحكم أنها كانت تأمر ه بالخروج مع بناته للحصيدة مع العُمال على أن تكون امرأته الأولى من ضمن الحصادين ولم يشفع لها حملها في شهرها الثامن.

ومرة ذهب الجميع للعمل فجهزت هذه الزوجة الشريرة طعام الغذاء وكان هذا الطعام «ثريد العدس» ممزوجاً بالملح وعندما أكلت ضرتها وبناتها منه عطشن عطشاً شديداً فمنعت عنهن الماء. واشترطت لسقايتهن أن تقلع عيناً من كل واحدة،وبعد ذلك تقلع العين الأخرى.

كان تصرف هذه الشريرة مع ضرتها وبناتها، هذا التصرف العنيف؛ لأنها اكتشفت انهن عندما يكن بمفردهن في البيت وبدون وجودها، يجلسن عند البقرة الصفراء الوحيدة والتي تعيش مع الأسرة، ويقُلن لها:

---

(١) خلجات من بلدي، أحمد العبويني ١٩٨٧، الشارقة ص١٤٦ (بتصرف).

يا بقرة أمّنا وأبينا نُريد غذاء أو عشاء أو إفطارا.

فيجهز الطلب سريعاً ويأكلن حتى يشبعن وبعدها ينمن هانئات راضيات بما قسم الله لهن.

لذلك أمرت الشريرة زوجها أن يذبح البقرة، فذبحها وجلست معه يأكلان اللحم ويرميان العظم خارج البيت حتى فرغ الأب وزوجته من الأكل، فقامت المرأة وبناتها يجمعن العظام ثم قمن بدفنه في صحن الدار.

وبعد أن أصبحت البنات وأمهن، عمياوات أقنعت الشريرة زوجها: أن يطردهن من البيت لأن وجودهن غير مرغوب فيه لعدم الاستفادة منهن. فطردهن مكرهاً وعشن في مغارة حول البلدة.

وبعد فترة ولدت المرأة فأنجبت ولد أسمته (صالحاً).

تعهدت الأم والأخوات أخاهن صالحاً بالرعاية حتى كبر وأخذ يخرج ويحضر لهن بعض الأعشاب والثمار ولما بلغ السابعة من عمره ذهب إلى القرية المجاورة: قرية أبيه وزوجته الشريرة. يدور على البيوت لجمع فضلات الأكل وكسرات الخبز.

وبعد عشر سنوات عرف صالح خلالها الظلم الذي

لحق بأمه وأخواته، وأبيه أيضاً. وتأكد أن زوجة أبيه ليست من بني البشر، ولكنه لا يستطيع أن يعرِّف بنفسه لأهل القرية وخاصة زوجة أبيه. حتى يُغير الله هذا الحال إلى حال أفضل منها.

عرفت الشريرة صالحاً بأنه ابن زوجها، فخططت للتخلص منه.

دهنت جسمها بالعصفر (الكركم)، ووضعت تحتها قراقيش السمسم ونامت:

- آه، آه

- ما بك يا زوجتي؟

- أنا مريضة ولايوجد دواء إلا قلب الجمل الأزرق.

- ومن أين لنا بذلك؟

- جاءني شيخ في المنام (أثناء النوم)، وقال لي إن الشخص الذي يستطيع إحضار قلب الجمل الأزرق. هو صالح الشحاد.

ما أشد المصيبة على رأس أبي صالح، فقد وقع هذا الخبر عليه كالصاعقة، لماذا؟ لأنه يعرف أنه ابنهُ، وقد

أخفى ذلك عن الشريرة حتى لا تؤذيه، فاغرورقت عيناه بالدموع.

فتأكدت الزوجة الشريرة أن صالحاً ابنه .

وعندما جاء صالح، أخبره أبوه بالطلب، فعرف قصد المرأة. وعلى الرغم من هذا، وافق. وقال سآتيكم غداً. ودع أمه وأخواته ووعدهن خيراً.

وفي الصباح كان في فناء الدار، وطلب مرآة ومقصاً ومشطاً، فأمرت المرأة له بذلك، وهي متأكدة أنه لن يعود.

خرج صالح من القرية ومشى ثلاثة أيام بلياليها، حتى وصل إلى مفترق طرق ثلاثة - فقرأ آية الكرسي، ودعا الله النجاة.

نظر صالح حوله فوجد كوخاً صغيراً، فذهب إليه وإذا امرأة عجوز بداخله، فأخبرها بقصته، وهمهمت له ببعض النصائح وأي الطرق يسلك، وتمنت له التوفيق.

مشي صالحٌ يميناً، وبعد مسيرة يوم وليلة، وإذا (بغول)، يقف له في وسط الطريق، ارتجف صالح وقال بصوت به رعدة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال الغول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (لولا سلامك غلب كلامك لأخلي السبعة أبحر تسمع قرش عظامك) ماذا تريد؟

- فهجم صالح عليه ومشط شعره وقلم أظفاره وأعطاه المرآة ليرى نفسه، وقد نفعه اندفاعه هذا لأنه عمل عملا رضي الغول منه وفرح. بناءً على توصية العجوز له، وقال للغول:

أريدُ يا سيدي قلب الجمل الأزرق.

فأجابه الغول:

هذا الجمل شرير وربما يقتلكٍ، ولكن نحن ثلاثة إخوة في هذا الطريق وبعد ذلك ستجد أمنا وسيخبرك أخوتي ماذا ستفعل حتى تصل إلى أمنّا وستجد عندها الحل.

- حاضر يا سيدي (وهم بالمسيرة)، فقال له الغول: إلى أين؟ إن المسافة بيني وبين أخي أكثر من أسبوع بلياليه. ولكن إجلس على كفي وسأرميك إليه حتى تكون على بعد أمتار قليلة.

ركب صالح على كف الغول، فقذف به الغول عند أخيه الثاني، الذي صنع به مثل أخيه الأول، حيث وصل إلى الغول الثالث، والذي تكفل بتوصيله إلى أمّهم الغولة.

قال الغول الثالث: أنا سأوصلك إليها، ولكن بعد أن تصل انظر إليهاً فستراها جالسة وثدييها على كتفيها فإن كانت عيناها حمراوين فلا تقترب منها وانتظر حتى تصفيا وإلا فاعمدها (وامهط من هذا البز «الثدي» مهطة وهذا مهطة)، أي مص الحليب فتصبح أخاناً أي ابنها وستخبرك بعد ذلك عما تُريد. ولاتخف من صوت الطاحونة التي تطحن عليها الشعير.

- حاضر يا سيدي.

فوصل صالح وعمل ما أمره الغول الثالث بكل دقة، فقد وجد الغولة وعينيها صافيتين فعمد إليها ورضع منها ثم عرّفها قصته، وقالت له: انظر يا ولدي هذا قصرنا وفيه أرواحنا جميعُها في زجاجات مكتوبة عليها أسماؤنا، وابني الجمل يذهب عصراً إلى بركةٍ في الشمال من هنا. تبعد مسيرة شهر ليستريح ويشرب منٍ البركة كلما امتلأت. ويوجد على ساقه سيف أصفر، فإذا انشغل بالشرب فاهجم عليه واضربه بالسيف الذي معه.

- وكيف سأعود يا أمي من عند الجمل؟

قالت له: خذ هذه المسبحة وعلقها على رقبتك ولاتدع

الجمل يراك بها وإلا سيقلبك إلى غول تجلس كأولادي عند البِرْكَة! ثم وضعته على كفّها وطوحت به إلى هُناك حيثُ البِرْكَةِ، حيث رأى الجمل الأزرق وعلى ساقه سيف أصفر بريقه يأخذ البصر.

فاختبأ حتى امتلأت البركة ماءً فأخذ الجمل يشرب وبسرعة كالبرق خطف السيف وطار على رقبته كالقدر وإذا برأسه يتدحرج. فقال الرأس عملتيها يا أمي..؟

أخذ صالح قلب الجمل الأزرق ووضعه في جراب السيف الذي قتله به، ثم فرَك صالح المسبحة وإذا هو أمام طائر ضخم فأشار إلى جهة القصر وهو على ظهره وما هي إلا لحظات حتى كان عند باب القصر - صعد صالح وأخذ الزجاجات وعددها سبع لأن الثامنة قد كسرت. فتناولها وقرأ ما عليها وإذا اسم الجمل الأزرق.

وذهب إلى الطير حاملاً السبع زجاجات وأشار إليه أن يطير إلى الغولة .

فتناول الزجاجة الخاصة بها ودلقها (سكبها)، فمرعنها ميتة لاحراك فيها، واستمر في طيرانه إلى أن قتل الجميع في طريقه قاصداً قريته.

وعندما وصل بيت والده وقف في صحن الدار وقال أين أنت يا زوجة أبي؟

- خرجت إليه الشريرة - أهلاً بصالح يا مرحباً يا مرحباً. فقال لها: هذه روحك في زجاجة وقلب أخيك في هذا الجراب. فماذا تريدين الآن؟

- قالت: أريد أن أقبض عليك - (وقبل أن يصل إليها) قتل الطير مسبقاً بكسر الزجاجة الخاصة به.

وقال للشريرة : هذه روحك الآن في يدي، وفتح الزجاجة.

- أرجوك يا صالح اطلب ما تشاء.

- أريد أن تُعيدي البصر إلى أمي وأخواتي.

- لا.. لا لن يعود البصر إليهن.

فسكب صالح نصف الزجاجة الخاصة بها على الأرض.

.. هنا رقدت الشريرة على الأرض وأخذت ترتعش... وأدركت أنها ميتة لامحالة إذا لم تخبره. فقالت له: إن المسبحة التي في عنقك تفعل كل شيء بمجرد فركها وإخبارها بما تريد..

- وكيف أتخلص من المسبحة بعد ذلك؟

- إقطعها.

فكسر صالح جميع الزجاجات، وفرك المسبحة ثم أخبرها بأن ترد البصر إلى أمه وأخواته، ثم قام بتقطيعها بعد ذلك.

أعيد البصر إلى والدته وإخوته، وقتلت الشريرة وأعيدت البقرة الصفراء وعاشوا جميعاً في بيت واحد في سعادة وسرور.

الحكاية الشعبية :

وتتناول الحكاية الشعبية في صياغتها موضوعا عاما واقعيا من حياة الجماعة السابقة أوالحاضرة ،وتبدأ بداية تقليدية، ثم تشرع في سرد وقائع تبني على أساس من الدين والتاريخ أو حتى من قبل الفكاهة؛ فتتناول المفارقات والمساجلات التي تتم بين رجل البادية ورجل الحضر مثلا ؛ فتصوغ ذلك في أسلوب فني يضمن لها روح الفكاهة .

وأحيانا نجد صعوبة في تحديد نوع الحكاية لأنها

تتضمن تفريعات وتداخلات في تركيبها البنائي ذلك لأن تداخل العوالم الإنسانية والحيوانية والواقعية والخيالية مع بعضها البعض هي التي تمنع التحديد [١]

وانتشرت الحكايات الشعبية في فلسطين وهناك حكايات شعبية كتبت قبل النكبة وحكايات كتبت من قبل أدباء يهود حيث كانت هناك أقليات يهودية (حوالي ١٥ ألف نسمة) عاشت في فلسطين ومارست حياتها الطبيعية في ظل الحكم العربي ولم تُمس بسوء؛ فكانت لها نتاجات أدبية /منها هذه الحكاية كتبها موشيه سميلونسكي (١٨٧٤ - ١٩٥٣)، تتناول قصة أقرب إلى الواقعية حدثت في إحدى قرى القدس التي تتعرض اليوم لتغيير جذري في سبيل تهويدها، فالكاتب في بداية حكايته يؤصل امتلاك أهل القرية لأرضهم ويصور بعضا من عاداتهم وتقاليدهم، والحكاية بعنوان «عبدالهادي»وهذا نصها [٢]:

---

(١) دور الحكاية الشعبية في التعليم، إبراهيم أحمد بخيت، ص١٣/١٩٧٧، مطبعة التمدن - السودان.

(٢) ترجمة محمد عوض الله، من كتاب «مع أبناء العرب»، طباعة القدس ١٩٦٦.

عبـــدالهـــــادي

ولد عبدالهادي في قرية صغيرة ذات بيوت قليلة متناثرة فوق صخور الجبال الممتدة شرقي القدس ...سنوات طويلة انقضت دون ان يمر بالقرية أحد من غير أهلها ..لم يكن أحد خارج القرية يعرف شيئا عنها أوعن أهلها كما أن أحدا من أهلها لم يكن يعرف شيئا عن الناس خارج القرية وما يجري في الدنيا من حولها .

لم يكن للقرية سوى القليل من الأرض للزراعة لكن الضأن كان وفيرا وكان جميع سكان القرية يعملون رعاة للضأن ..لم يسمع أهل تلك القرية عن حكام ذلك الزمان او عن أبطاله سوى ما يتناقله شيوخ القرية عن إبراهيم باشا ..كان الشيوخ يجتمعون في المساء يحيط بهم أبناء القرية فيحدثونهم عن بطولات ذلك القائد الكبير وعن عدله . كان الشبان يصغون لتلك الأحاديث ويعايشون بمشاعرهم أحداث ذلك الزمن ..وكان على رأس المتحدثين الشيخ صالح الذي حارب تحت لواء ابراهيم باشا ووصل معه إلى بلاد نائية ،إلى عكا ودمشق وحلب ..كان يحدثهم عن فرس إبراهيم باشا التي لا تسبق ولا يدركها الرصاص

بسرعتها الفائقة وكان يحدثهم عن بندقيته التي أطلقت من الرصاص ما لا يحصى دون أن تخطئ هدفها مرة واحدة ..كان أبناء القرية يسمعون هذه الأحاديث الشائقة فاغرين أفواههم دون أن تند منهم كلمة وكان من بينهم عبدالهادي ابن الشيخ صالح ..كان عبدالهادي يسمع كلام أبيه فتداعب خياله الأحلام حول ذلك البطل العظيم وبندقيته العجيبة... عندما توفي الشيخ صالح ورث ابنه عبدالهادي عنه بندقيته ..تلك البندقية التي قاتل بها تحت لواء إبراهيم باشا وكان يدرك أنه كان محظوظا بتملكه لها ؛ لذا درب نفسه جيدا على استخدامها وكان شبان القرية يشعرون بالغيرة منه لحيازته تلك البندقية ..ومع مرور الأيام رسخ في أذهان أبناء القرية والقرى المجاورة لها أنه ليس في الدنيا بندقية أخرى تماثلها..مرت الأيام تزوج عبدالهادي وانجب ابنا ..لقد أحب زوجته و أبناءه وكان أبناء القرية يقولون فيما بينهم أن عبدالهادي يحب بندقيته أكثر من حبه لزوجته وابنائه ..أما عبدالهادي يقول: إن بندقيتي لم تخطئ هدفها مرة واحدة ..وبعد أن قتل بها إحدى الضباع ايقنوا بصدق ما يقوله عنها ..كانت إحدى الضباع تجوس في محيط القرية ولم يستطع أحد أن يخلص أهل القرية منها ..لقد استقر في أذهانهم أن تلك الضبع هي الغول التي يسمعون عنها

في الأساطير وكانوا لشدة خوفهم منها يخشون الخروج من القرية ليلا إلى أن أخذ عبدالهادي على عاتقه أن يخلصهم منها. ذات ليلة خرج عبدالهادي للقضاء على تلك الضبع وتوجه نحو المغارة التي تأوى إليها ، مكث عامة ليلته أمام المغارة ينتظر خروجها وما إن خرجت حتى أطلق نحوها رصاصة من بندقيته فخرت صريعة عندها أيقن الجميع أن بندقية عبدالهادي ليست بندقية عادية . تسامع سكان القرية المجاورة بذلك ..ويوما بعد يوم أخذوا يدعون عبدالهادي ليخلصهم من الضباع المنتشرة حول قراهم وكان في كل مرة يعود منتصرا حتى صارت بندقيته حديث الناس وصاروا لا يذكرون اسمه إلا ويقرنون به بندقيته. كان يعيش في تلك الأنحاء شيخ غني وقد نما لعلمه خبر تلك البندقية فرغب في شرائها ..دعا إليه عبدالهادي وعرض عليه أن يشتري منه بندقيته ..لم يجب عبدالهادي لكنه في داخل نفسه ضحك من هذا العرض .

سأعطيك عشر ليرات ذهبا ثمنا لبندقيته ..قال له الشيخ ..ارتاع عبدالهادي عندما سمع بهذا المبلغ البالغ الضخامة ..أنه لم ير في حياته ولا في أحلامه مبلغا ضخما من المال كهذا ...مرت لحظات وهو مطأطئ الرأس يفكر

في هذا العرض ..أخيرا رفع رأسه وقال للشيخ :..لا ..لن أبيع بندقيتي ..لقد رافقته تلك البندقية خمسة وعشرين عاما ..فكيف يبيعها؟ كيف يبيع بندقيته التي لم يصنع لها مثيل إلا في عهد إبراهيم باشا ..بندقيته هي شرفه ولن يفرط فيها ولو أعطى بها كل أموال الدنيا . شعر الشيخ بغضب شديد لرد عبدالهادي وظلت كلماته يتردد صداها في نفسه لأيام .. بعد عدة أيام دعا ذلك الشيخ عبدالهادي مرة أخرى وقال له:أعطني بندقيتك لقاء إعفاء ابنك من الخدمة العسكرية في الجيش التركي ..ما أن سمع عبدالهادي بهذا العرض حتى أصابه الذهول ..إن بإمكانه أن ينقذ ابنه من أخطار مؤكدة لقاء بندقيته ..مد يده نحو البندقية ليعطيها للشيخ وما أن لمست يده البندقية حتى شعر أن ذلك أمر محال...

لا لن اعطيك إياها ..أجابه عبدالهادي.. خرج عبدالهادي من بيت الشيخ وفي قلبه غصه ..بكت زوجته عامة نهارها وطيلة ليلها متوسلة إليه أن يستجيب لطلب الشيخ من أجل انقاذ ابنها أما الابن فلم ينطق بشيء لكنه نظر نحو أبيه بعينين ملؤهما الثقة والأمل ..كانت نظرت الابن نحوه أقسى على نفسه من دموع زوجته لكنه لن يتنازل

عن بندقيته ..ومرة أخرى انتصرت البندقية والتحق الابن بالجيش التركي..بدأت المصائب تحل بعبدالهادي...في أحد الأيام دعا سكان إحدى القرى المجاورة عبدالهادي ليخلصهم من إحدى الضباع ..لقد جلبت تلك الضبع الكثير من المآسي لسكان تلك القرية دون أن يتمكنوا من القضاء عليها ..حين وصل عبدالهادي للقرية ورأى سكانها بندقيته القديمة سارعوا بإحضار بندقية جديدة له لكن عبدالهادي سخر منهم كيف يستبدل بندقية إبراهيم باشا ببندقية غيرها ؟اعندما حل الظلام خرج عبدالهادي متوجها نحو المغارة التي تأوي إليها الضبع ..رفع بندقيته وانتظر خروجها وما إن خرجت حتى صوب نحوها البندقية ثم ضغط على الزناد لكن الرصاصة لم تخرج من البندقية ..إنها المرة الأولى التي تخذله بندقيته منذ خمسة وعشرون عاما ..اتجهت الضبع نحو عبدالهادي وشعر المسكين برعب شديد جعله غير قادر على أن يحرك يدا أو رجلا فضلا عن أن يضع طلقة جديدة في البندقية ...وما أن اقتربت منه حتى التفتت فجأة وعادت للمغارة ..عاد عبدالهادي للقرية وقد ابيض شعر رأسه لكنه قال في نفسه :إنها مجرد صدفة ..ليس في الدنيا بندقية تماثلها. ذات يوم حضر للقرية ابن الشيخ الفني الذي رغب في شراء بندقية عبدالهادي

..لقد طاف هذا الفتى بكثير المدن ..شاهد يافا والقدس وبيروت والإسكندرية ..تحلق أبناء القرية حول ذلك الفتى ليسمعوا منه ما شاهده في ذلك العالم الغريب خارج قريتهم ..وحدثهم عن السفن التي تمخر البحار ..وعن القطارات التي تصل إلى مسافات بعيدة بلا خيول تجرها وحدثهم عن البنادق والمدافع الحديثة العجيبة التي يصنعونها في هذه الأيام ثم أخرج لهم بندقيته وأراها لهم ..بعد ذلك تقد نحو عبدالهادي وقال له:لقد أراد أبي أن يشتري منك بندقيتك بعشر ليرات ذهبية مع أنك لو عرضتها علي بلا مقابل لما قبلتها أنك تعرف الكان الصحيح لبندقيتك ..إنها المزبلة..

لو أن عبدالهادي سمع هذه الكلمات عن زوجته أو عن ابنائه لما كانت اشد على نفسه مما سمعه عن بندقيته إحمر وجهه وارتجفت يداه لكنه خشي أن يرد على ابن الشيخ أو أن يكشف له عما في نفسه لكنه قال:وأنا لن أتخلى عن بندقيتي ولو اعطيتني عشرا من أمثال بندقيتك ..فقال له ابن الشيخ :إن بندقيتك لا تصح إلا لقتل الكلاب الضالة.. شعر عبدالهادي بمرارة شديدة مما سمعه ..كنه قال:إن قدم بندقيتي هو الذي يرفع من شأنها لم تصنع البنادق

الجيدة إلا في إبراهيم باشا ...خشي أبناء القرية أن يحدث شجار بين الرجلين فاقترحوا عليهما أن يختبروا البندقيتين ليعرفوا أيهما أبعد مدى ..وافق الاثنان ..وخرج الجميع للحقل لاختبار البدقيتين وجعلا بينهما هدفا محددا على مسافة معينة بلغت بندقية ابن الشيخ هدفها أما بندقية عبدالهادي فقد فشلت في بلوغ هدفها ...لكن عبدالهادي وجد ما يعزى به نفسه "صحيح أن بندقيتي ليست أبعد مدى لكنها لا تخطئ هدفها أبدا" لكن هذه الخاطرة لم تزل من نفسه ما أصابها من غم لأيام عديدة ..

بعد ثماني سنوات من الخدمة في الجيش التركي عاد ابن عبدالهادي إلى القرية ووفد جميع أبناء القرية إليه ليهنئوه على عودته سالما ليسمعوا منه أخبار العالم الكبير المحيط بهم ..حدثهم عن السفن والقطارات وعن البنادق الحديثة التي تستخدمها الجيوش هذه الأيام ..وقف عبدالهادي وأخذ يسمع ما يقصه ابنه على شبان القرية وعندما سمع ما يقوله عن البنادق الجديدة ضحك وقال:صحيح إن بنادقكم الحديثة هذه أبعد مدى لكن ما جدوى ذلك إن لم تكن دقيقة في إصابة هدفها ؟ البنادق التي صنعت في زمن إبراهيم باشا فقط هي البنادق الجيدة

...فقال ابنه:حقا يا أبي لكن بندقيتك لا تخطئ هدفها لأنك أنت الذي تصوب بها ..خذ بندقيتي وجربها بنفسك لتعرف الفرق ما بين القديم والجديد ..سمع عبدالهادي كلمات ابنه فشعر بغضب شديد حتى لقد رفع يده وهم بأن يلطم ابنه ..لقد تركت كلماته جرحا في نفسه وظل يتردد صداها في نفسه لعدة أيام..ذات ليلة قبيل طلوع الفجر وبينما كان أهل القرية نياما قام عبدالهادي وخرج من بيته بهدوء الى خارج القرية ..كان يحمل معه بندقيتين ..بندقيته وبندقية ابنه ..ابتعد عن القرية حتى صار منها بحيث لا يراه ولايسمعه أحد ..الآن ستعرف من الذي كان محقا الآن سيتأكد بنفسه أن بندقيته هي الأفضل ...كانت تنتشر بين الصخور بعض الاشجار ..جعل عبدالهادي شجرتين متجاورتين هدفا لاختبار البندقيتين ..حمل بندقيته وصوبها نحو الشجرة الأولى وأطلق منها رصاصة ثم حمل بندقية ابنه وأطلق منها رصاصة نحو الشجرة المجاورة ..وتوجه بعد ذلك نحو الشجرتين وتفحصهما ..فطأطأ رأسه ثم عاد الى مكانه وبعد أن أعاد التجربة مرة أخرى ثم توجه نحو الشجرتين ومرة أخرى طأطئ الرأس ..وبعد أن أعاد المحاولة للمرة الثالثة أمسك ببندقيته وتلك البندقية التي أبى ان يبيعها بمبلغ ضخم من المال وأبى ان يشتري بها حرية ابنه

وصعد بها الى رأس الجبل ثم ألقاها من فوق نحو الصخور المنتشرة عند سفحه..مع ضوء الصباح عاد عبدالهادي لبيته وبيده بندقية واحدة ...بندقية ابنه ..لم يشعر به أحد عندما خرج ولم يشعر به أحد عندما عاد ..كما أن أحدا من أبناء القرية لم يعرف السبب في مرضه المفاجئ الذي أصابه صبيحة اليوم التالي وما هو ذلك المرض الذي أدى إلى وفاته بعد سبعة أيام «انتهـــت».

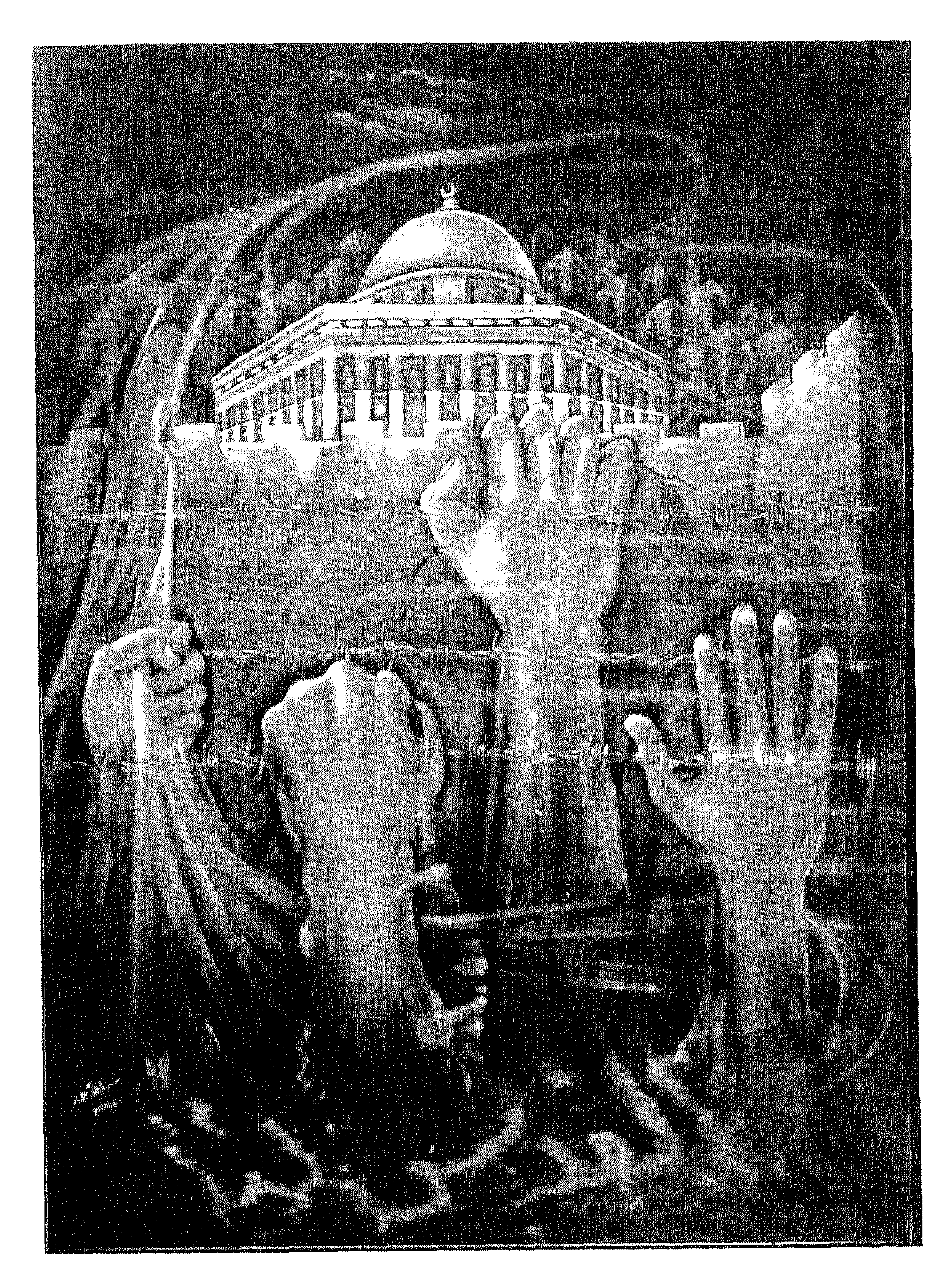
... وهكـذا

فلم يعرف اليهود الأمن على مدار تاريخهم إلا في ظل الحكم الإسلامي، فقد عاشوا في كنف المسلمين منذ الفتح الإسلامي يتمتعون بالحرية والاستقرار والأمن، مما أتاح لهم عيشة كريمة.

وقد عاشت بقية منهم في فلسطين واندمجوا في المجتمع الفلسطيني فكانوا جزءاً منه يجاورون أهله ويتكلمون لغته ويتخذون من عاداتهم وتقاليدهم أسلوب حياة لهم، ثم ما لبثت الصهيونية أن أقبلت بأرجاسها وأوزارها فصارت العجل الجديد لبني إسرائيل، وزيّن لهم سامريّهم (هرتزل) عبادته فعادت (لميسُ) إلى عِترها وحنّت الأفعى إلى طبعها.



فلسطين
Palestine
Palestinian Traditional Costumes Map



كلنا للقدس



طوابع فلسطينية

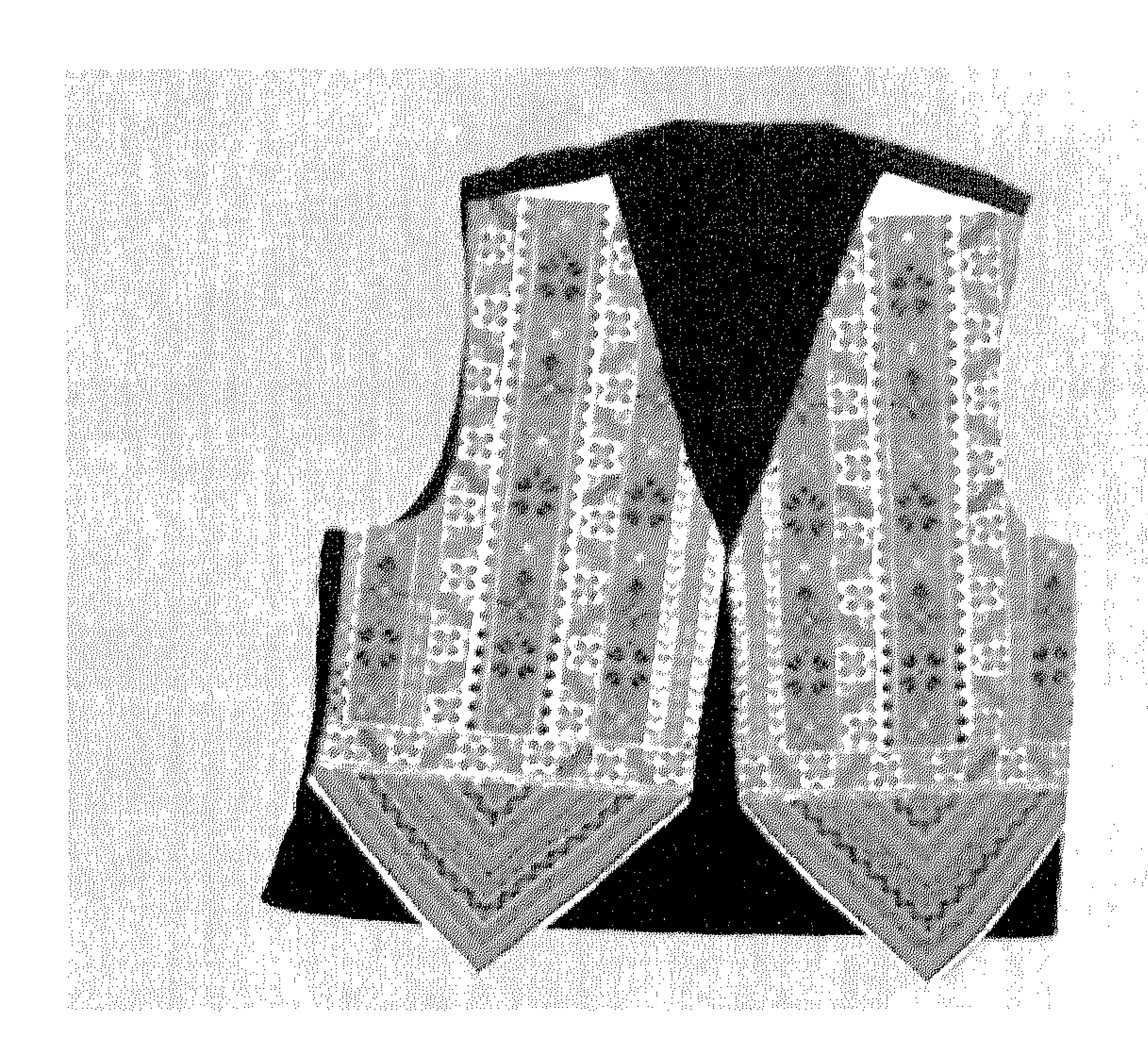


عملات فلسطينية



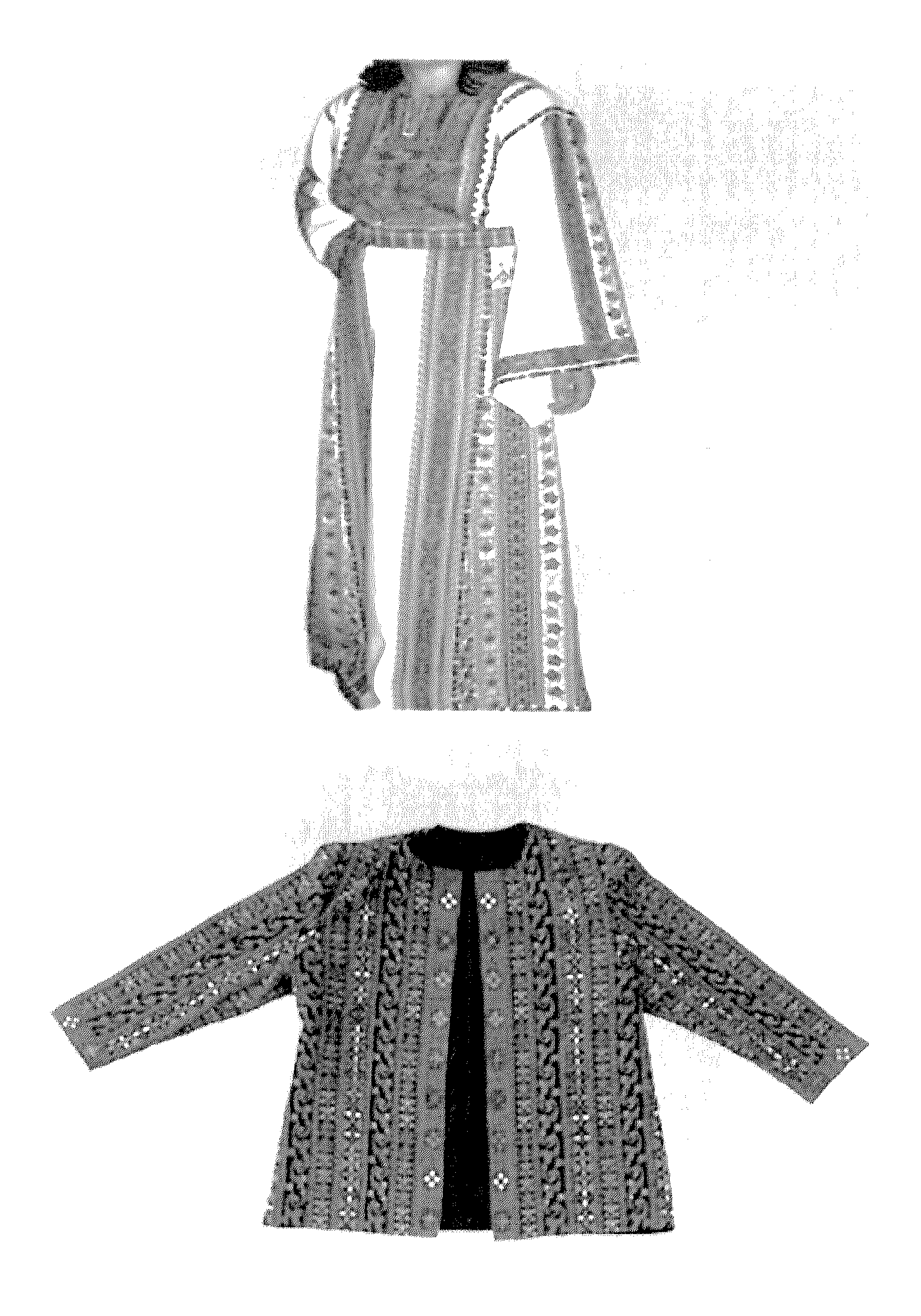
منطقة بيت لحم

زي مناسبات من بيت دجن

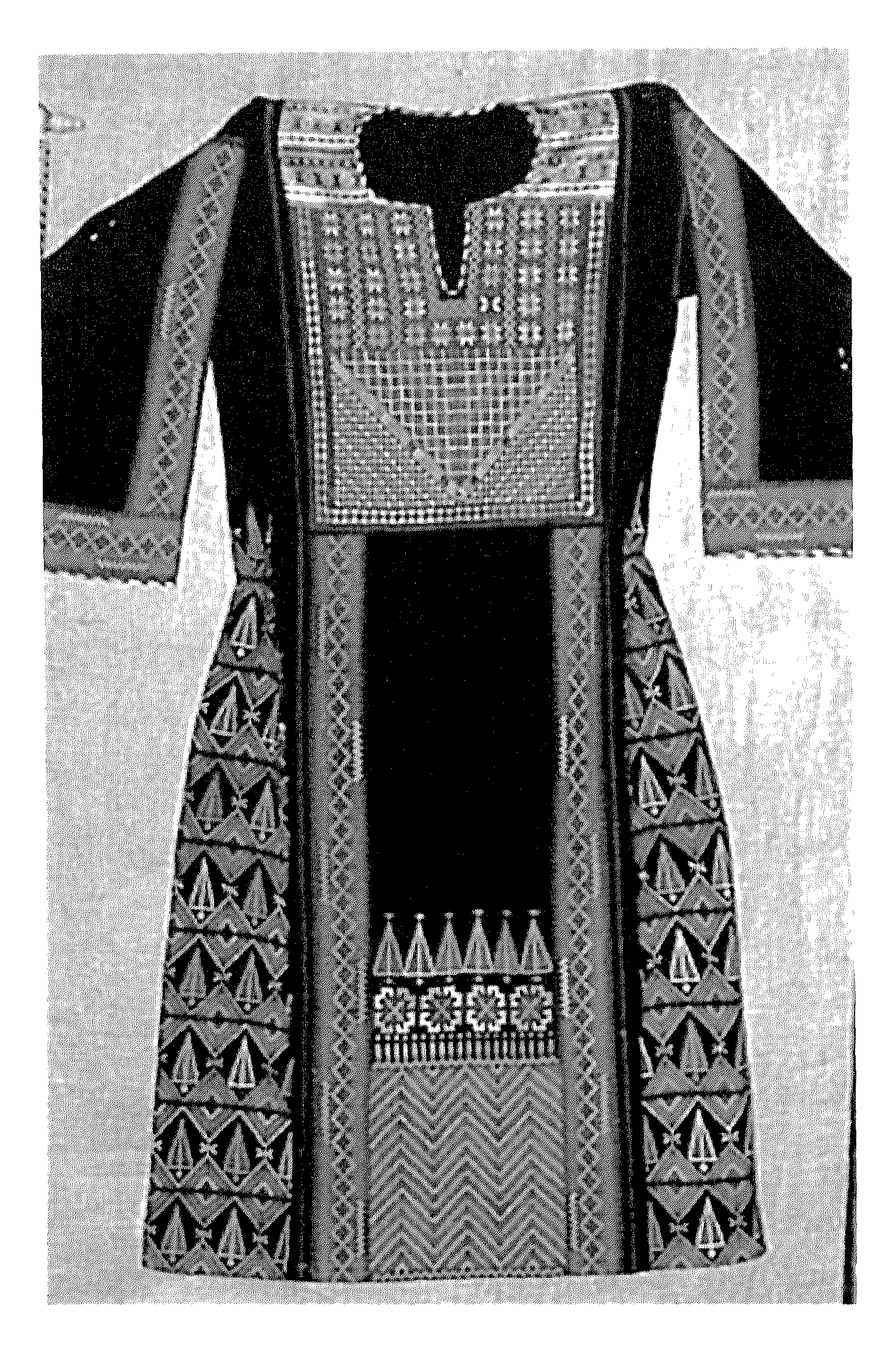


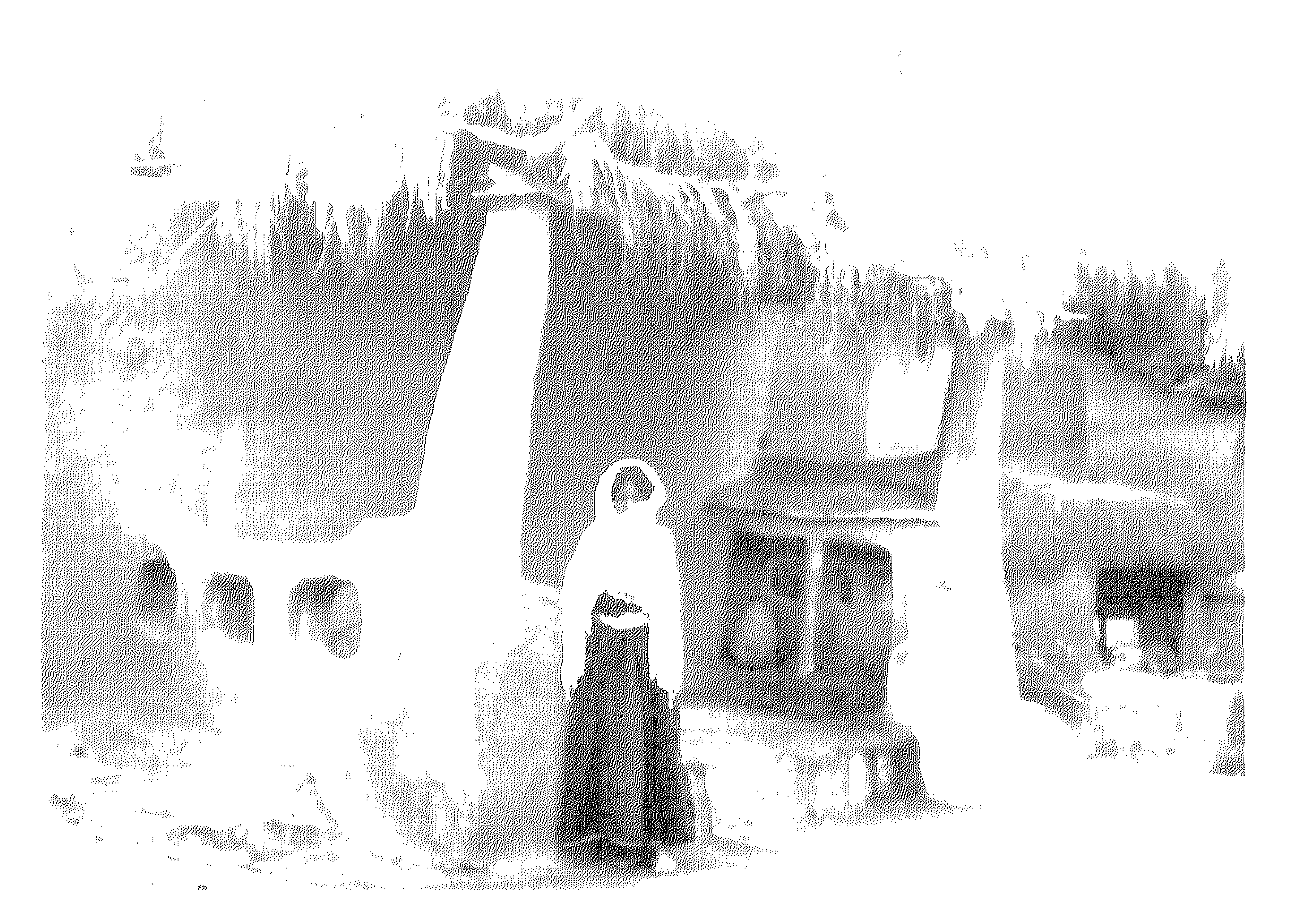


الصدرية



تقصيرة من القدس





حوش أحد منازل القرية (نحو سنة ١٩٤٥) [إسدود]

Ramallah & Al-Bireh District

منطقة رام الله والبيرة



فتل المفتول



تطريز الوسائد

منطقة الجليل : صفد ، عكا ، الناصرة

Galilee District Safad , Acre , Nazareth

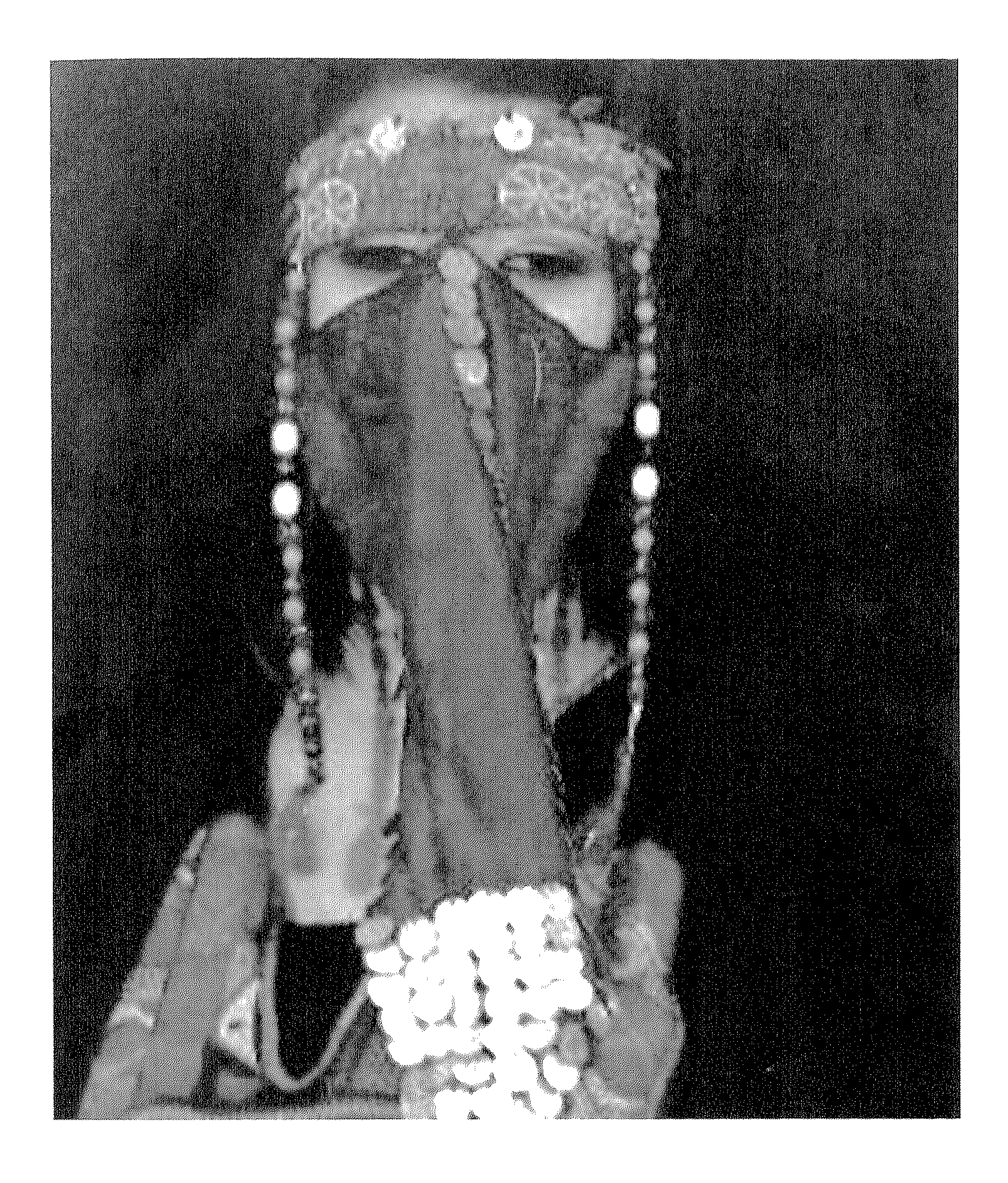





منطقة القدس
Jerusalem District



صناعة الفخار



زي شعبي من بئر السبع

إصدارات مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية

♦ الفائزون بالجائزة :

1) الفائزون بالجائزة – الدورة الأولى – عبد الإله عبد القادر 1990

2) الفائزون بالجائزة – الدورة الثانية – عبد الإله عبد القادر 1992

3) الفائزون بالجائزة – الدورة الثالثة – عبد الإله عبد القادر 1994

4) الفائزون بالجائزة – الدورة الرابعة – عبد الإله عبد القادر 1996

5) الفائزون بالجائزة – الدورة الخامسة – عبد الإله عبد القادر 1998

6) الفائزون بالجائزة – الدورة السادسة – عبد الإله عبد القادر 2000

7) الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي – عبد الإله عبد القادر 2000

8) الفائزون بالجائزة – الدورة السابعة – عبد الإله عبد القادر 2002

9) مجلة العربي 2002

10) الفائزون بالجائزة – الدورة الثامنة – عبد الإله عبد القادر............................ 2004

11) الفائزون بالجائزة – الدورة التاسعة – عبد الإله عبد القادر 2006

12) الفائزون بالجائزة – الدورة العاشرة – عبد الإله عبد القادر 2008

13) جمعة الماجد "طواش الخير".. 2008

♦ الندوات :

14) أبحاث ووثائق عن الشاعر سلطان بن علي العويس – مجموعة من الكتاب... 2000

15) سلطان العويس – دراسات وأبحاث – مجموعة من الكتاب (ج1)................. 2001

16) سلطان العويس – دراسات وأبحاث – مجموعة من الكتاب (ج2) 2001

17) الثقافة في الخليج العربي بين المتحرك والساكن – مجموعة من الكتاب........ 2003

18) الثقافة العربية في مفترق الطرق – مجموعة من الكتاب............................... 2004

19) العراق الحضارة – مجموعة من الكتاب.. 2005

20) الشام حضارة وإبداع – مجموعة من الكتاب.. 2006

21) ندوة الإمارات وبعدها العربي 2008

♦ إصدارات الفائزين :

22) مقدمة في النقد الأدبي – د. علي جواد الطاهر... 2003

23) من الذي سرق النار (خطرات في النقد والأدب) د. إحسان عباس................ 2003

24) الدراسة الأدبية والوعي الثقافي – د. مصطفى ناصف................................ 2004

25) تجديد الفكر العربي – د. زكي نجيب محمود.. 2004

26) آفـاق العصـر – د. جابـر عصفـور.. 2005

27) الفن والحلم والفعل – د. جبرا إبراهيم جبرا.. 2006

28) الراوي : الموقع والشكل – د. يمنى العيد.. 2006

29) مجتمع ألف ليلة وليلة – د. محسن جاسم الموسوي..................................... 2007

30) غروب شمس الحلم – د. فاروق عبد القادر.. 2007

31) الثقافة التلفزيونية – د. عبد الله الغذامي.. 2007

32) النظرية النقدية في بحوث الاتصال – د. عواطف عبد الرحمن 2008

33) موسوعة تاريخ الصهيونية – د. عبد الوهاب المسيري 2008

34) دائرة الإبداع – د. شكري محمد عياد 2008

35) تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي – د. محمد جابر الأنصاري....... 2008

♦ ألبومات :

36) سلطان "ألبوم صور" من حياة سلطان العويس 2001

37) بصائر شعر وفن 2001

38) حروف 2003

39) أوزجاي... 2003

40) يا عراق.. 2004

41) عبد القادر الريس "الإنسان .. الوطن" 2005

42) مبدعون من الشام... 2005

43) عبد اللطيف الصمودي.. 2006

44) المناظر الطبيعية البولندية – فرانشيك ريشارد مازوريك 2007

45) سما دبي لوحة وقصيدة ونغم – أجنحة عربية 2008

♦ متفرقات :

46) النظام الأساسي واللوائح لمؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية (ط2)....... 2001

47) سلطان العويس محارة الزمن الجميل – أحمد علي الزين 2001

48) سلطان العويس – الجائزة والشعر – عبد الغفار حسين 2002

49) تريم عمران، لمحات من حياته – عبد الغفار حسين...................................... 2002

50) تريم كما عرفته – محمد حسن الحربي 2002

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

تمثل الهوية الهم الأكبر لشعبنا الفلسطيني، الذي تحمل من أجلها الكثير من المشقة ومحاولة الاقتلاع للمحافظة عليها وصيانتها، لأن فيها كبرياءه وعزته وارتباطه بأرضه الأم التي احتوت تراثه لآلاف من السنين، فعاش على ثراها يستمد قوته من قوة الحياة التي اكتحلت بقدسية الزمان والمكان وظهرت جليّة واضحة في تجاربه، الإنسان / الوطن، والإنسان / الكون، ليعبر بنتاجه عن عواطف وحاجات وضمير أبناء شعبه من خلال تراث أدبي شعبي ناضج يحوي لغة وتصويراً يرتقي بهما على الجراح.





مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية

هاتف: 2243111 4 00971، فاكس: 2217839 4 00971
ص.ب: 14300 دبي، الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: mail@alowaisnet.org
الموقع الإلكتروني: www.alowaisnet.org